

طبعة محدودة

الناسك



جميلة العلايلي

حقوق الطبع والنشر محفوظة



التركة الأدبية لجميلة العلايلي

www.gamilaelalaily.com

لا يجوز إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب أو تخزينه في نظام استرجاع أو نقله بأي شكل أو بأي وسيلة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو عن طريق التصوير أو التسجيل أو غير ذلك دون إذن خطي مسبق من الناشر


أم كلثوم
جميلة العلايلي

عن جميلة العلايلي

جميلة العلايلي، ولدت في مدينة المنصورة على ضفاف النيل، حيث تشبعت روحها بعذوبة الماء وبهاء الطبيعة، نشأت في كنف عائلة متوسطة الحال، محافظة على التقاليد الأصيلة، إلا أن عقلها كان طليقًا منذ الطفولة، يتساءل ويتأمل، ويرفض القيود التي تفرضها الأعراف على المرأة.

بدأت تراسل مي، فتدور بينهما أحاديث ورسائل مليئة بالمعاني العميقة والأسئلة الإنسانية الكبرى، فتعلقت بها وتبنت روحها الفكرية، وتعلمت منها كيف يكون الأدب نافذة للحرية. كانت مي بمثابة المعلمة والملهمة التي أيقظت فيها شغف الكتابة.

في تلك الفترة، كانت هدى شعراوي، الزعيمة النسائية والمناصرة لقضايا المرأة، قد شقت طريقها كصوتٍ يدعو إلى تحرير المرأة في مصر، وإلى منحها حقوقها في العمل والمشاركة المجتمعية. وجدت جميلة في هدى مثالاً للمرأة المستنيرة المتمردة على القيود.

انضمت جميلة إلى جماعة "أبولو" الأدبية التي أسسها الشاعر أحمد زكي أبو شادي، فكانت من أوائل الشاعرات اللواتي انضممن إلى هذا الصرح الأدبي، الذي مثّل ثورةً في الشعر العربي، جامعًا شعراء الرومانسية ومتبنيّي الحداثة.

كانت جميلة، بفضل روحها المفعمة بالحرية، مؤسسةً للعديد من الجمعيات الثقافية والاجتماعية، فأسست "جامعة أدباء العروبة" بهدف دعم الأدباء الشباب ونشر نتاجهم الأدبي، وأسهمت في إنشاء "مجمع الأدب العربي" الذي أصبح منبرًا للإبداع الأدبي.

وفي ميدان الشعر، أصدرت جميلة ثلاثة دواوين شعرية تميزت كل منها بأسلوب مختلف. ديوانها الأول، "صدى أحلامي"، الذي صدر في عام ١٩٣٦، جاء حاملًا بين طياته مزيجًا من التأملات الرومانسية في الحب والجمال والحياة.

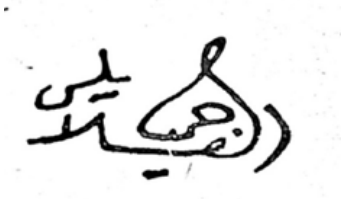
لم تقتصر إسهامات جميلة على الشعر فحسب، بل امتدت إلى الرواية، إذ كتبت عددًا من الروايات التي عبرت من خلالها عن قضايا اجتماعية وروحية. يمكن تصنيف رواياتها حسب الموضوعات التي تناولتها: فقد كتبت عن الروحانية والتصوف، والمرأة والمجتمع، والحب والطبيعة.

وفي مجال التأملات، ألفت جميلة كتبًا من نوع خاص، تمزج فيها بين السرد والروحانية، مثل "أنا وولدي" و"أرواح تتآلف"، حيث تتناول قضايا فلسفية وإنسانية، وتغوص في عمق النفس البشرية بحثًا عن المعاني الخالدة للوجود.

أما عن تأثيرها، فقد مثلت جميلة العلايلي أحد الأصوات الأدبية الرائدة في مصر والوطن العربي، إذ كانت من أوائل النساء اللواتي واجهن المجتمع بأدبهن، وحملت على عاتقها دورًا في تحرير صوت المرأة ودفعه ليصبح مؤثرًا في المشهد الثقافي.

وفي حياتها اللاحقة، اعتزلت جميلة الحياة العامة تدريجيًا، حيث انسحبت من المجتمع وانقطعت عن الحوارات الأدبية، واتجهت نحو التأمل والتصوف، حيث ركزت على الكتابة الروحية التي تهدف للارتقاء بالنفس وإيجاد السلام الداخلي.

في عام ١٩٩١، رحلت جميلة العلايلي عن الحياة، تاركةً وراءها إرثًا أدبيًا وروحانيًا عظيمًا، وما زالت أعمالها شاهدة على تجربة أدبية فريدة لامرأة امتلكت شجاعة الكلمة وصدق الروح، ليبقى صوتها في الأدب العربي خالدًا.



الناسك

جميلة العلايلي

١٩٤٤

الناسك

في إحدى ضواحي القاهرة التي سماها قدماء المصريين (آمون) أي عين شمس؛ تلك الضاحية الهادئة الحالمة التي تصور جلال السحر العميق الذي يتكلم بلغة الضوء المعطر الفواح، صمت ينساب في الأعماق المرهفة فيخيل اليك أنك تستمع إلى أغاني الخلود فتستطيع أن تجزم بأنها بلد السحر والحنان وباعثة الحب والإيمان. واذا كنت من علماء الآثار والباحثين لا تجد عجبا في طابعها السحري، فعلى أديمها عاش قدماء المصريين في أبهى عصورهم، وسطع نجمها التاريخي مع بزوغ فجرهم، ورويت رمالها بدماء الشهداء عندما اشتبك في هذه المعركة عمرو بن العاص في الحرب مع الروم وانتصر العرب انتصارا عظيما.

وفي هذه الضاحية التي كتب الله لها الخلود يقيم - الناسك - قرب جبل تما يسميه أهل عين شمس القدامى وإن كان في مظهره الحالي لم يعد جبلا شامخا بالمعنى الدقيق... ولكن ما تبقى له من ارتفاع عن أراضيها الصحراوية النائية يشير إلى هذه التسمية القديمة. يعيش في كوخ متواضع يكفي حاجته فاذا مررت به و كان جالسا أمام كوخه راعك هذا الطيف الوديع. إنه يبدو مشدودا إلى تفكير عميق مطلق وتأمل لا محدود، وقد تحسبه في غفوة وماهو إلا في يقظة سارحة تجمع بين غفوة النفس المادية ويقظة الروح المتعطشة لتعرف ما وراء المجهول... فهو لا يمل الجلوس أمام كوخه، ولا يكف عن التطلع

إلى الترعة التي تجرى أمامه تلك الترعة التى شقتها سواعد البشر لري الأرض، مادا بصره إلى ما وراءها حيث منبعها الذي يسمونه النيل فيتخيله وهو ينساب في خفة الهواء الساري منحدرا في طريقه المرسوم له منذ الأزل. ويغمغم الناسك وهو في استغراقه مخاطبا نفسه... أو يحسب الناس هذا المجري مجموعة من قطرات الماء...؟ أنه في الواقع كلمات من آيات الله صاغها في هذا الزلال أو لعله مجري من ينبوع الخلد بعثه الله إلى الأحياء رحمة و معجزة من المعجزات الأبدية الناطقة بلسان الخالق على مدى الدهور... يبلغ مسامعنا ترتيلا منغما سميناه موجا... يعبر في إيضاح عن أسمي القوانين البشرية التي يعاني الإنسان جهدا جبارا في سبيل تدعيمها... و في لحظة اطراق يتمنى أن يكون للناس من قوانين الله أوفر نصيب فلا يعرفون غير الرحمة والحق والبر والعدالة.

أن الناسك لا يؤمن بشيء غير ما يدركه على ضوء إحساسه وإيمانه فهو مثلا لا يؤمن بما يقوله علماء الجغرافيا بأن – النيل مجرى ينبوع ولدته الحرارة، إذ لو كان الأمر كذلك لجف المجرى عندما تهبط درجة الحرارة إلى الصفر، ولكنه يؤمن بأن النيل مجموعة من قطرات الرحمة الإلهية بعثها الخالق ريا لكل ظامئ. باعث حياة لكل كائن. ويطول تأمله في هذا الشأن فتدمع عيناه ويغمغم... أجل هي رحمة الله... رحمة الله التي أجرت هذه المياه... ورحمة الله التي تبعث الخضرة والانتعاش في كل ذابل... ويود وهو غارق في تأمله أن يرتفع ويرتفع ليقترب من الله... ثم لا يلبث حتى يسخر من نفسه متمتما... ومتى كانت مسافات الارتفاع والانخفاض وسيطا إلى الله؟ أن الله تحت آخر كل طبقة من طبقات الأرض وفي أعلا كل سماء من

السماوات العلا... وقد يضطر أحيانا أن يمشي على مقربة من كوخه أو بعيدا عنه، فاذا لاح عن قرب أو بعد بدا جسم هزيل ضئيل يستره رداء خشن نسج من الصوف وقد ترك لحيته تثبت عدد السنين الطوال التي مرت من عمره حافلة بالاسى المرسوم على غضون وجهه و كأن أحزانه سطرت هذا السواد الذي يحيط بعينيه رغم النور الذي يشع منهما معبرا بوضوح عن إيمان ثابت ويقين راسخ.

وها هو ذا جالس يفكر في ماضيه البعيد وحاضره القريب ومستقبله المجهول، تتلاعب بذهنه أحزان الماضي فيقع فريسة لانفعالاتها ويرفع بصره إلى السماء الصافية ليتأملها تأمل الصوفي فإذا به يخرج من آلام نفسه إلي دنيا رحيبة شاعرا بأن قوة خفية مست صدره في لطف وسحر منبعثة من أعماق إيمانه القوي، وسرعان ما يهدأ ويخشع ويركع لله شكرا على ما أولاه من نعم وفضل أبرزها قدرته على اكتساح آلامه ومغالبة أحزانه؛ ويسخر من نفسه متسائلا: لماذا أسميها القدر الذي أخضع له مستسلما؟ لماذا أحبس صدري على ما لايسر ليظل صدرى ميدانا للحرب بين الخير والشر... إنى سأكون في النهاية خاضعا لأحد المتحاربين... فاذا كنت بجانب الخير سأكون هيكلا محطما، اذ التناحر سيسلبني قواي ولايدعني أخيرا إلا هشيما لا يملك من نفسه غير القدرة على التنفس، ولا يملك من دنياه غير التافه الذي لا يقيم بنيانا؛ ثم يسخر من هذا الرأى أيضا ويدمدم... وأي بنيان ارتجيه؟ حسبى ما يلقيه الله على بصيرتي من اشعاع رباني يكفل لي الحياة الرضية الهادئة، ويقوم في التو منتعشا كأن إحساسا جديدا تنزل عليه، وبدا كأنه بطل خرج من معركة حاسمة يزهو بانتصاره على هواجسه المظلمة ولا يسعه إلا أن يسبح الله شاكرا مطمئن الضمير

بأسم اللمحات تعبر خلجاته عن سعادته الروحية وإيمانه العميق مشغول الفكر بأمر لا يدركه غير الله...

ويظل كذلك حتى يلمح الناس يغدون ويروحون، ويجد نفسه يتسمع أصواتهم الصاخبة آنا والهادئة أحيانا مجذوبا لدنياهم جذبا يقصر أو يطول، ثم تعاوده الثورة على نفسه وعلى الناس غضا الطرف عن الجمال الساحر الذي يحيط به، والفتنة التي كان يكفي أن يمس سحرها الهادئ وجدانه فتكهرب إحساسه فيتحول بتأثيرها من إنسان معتزل إلى إنسان اجتماعي.

وفجأة يلمح سرب من الطيور ترفرف حواليه يجذب بعضها بعضا ويروقه هذا المشهد فيلاحقها حتى تختفى في أوكارها ويخلو الفضاء الذي ملأته أنسا وبهجة منها... ويذهب معها انفعاله الطاريء باسما بسمة لا تخلو من مرارة متمتما... ما أشبهني بالطير... يملك الدنيا كلها ولا يملك شيئا... يشدو لحنا شجيا ويضيع شدوه بين موجات الأثير... هو ملك وأسير... حر وعبد، ملك عندما ينطلق في فضاء الله اللامحدود وأسير عندما يقع في يد صائد جائر... فحياته كحياتي... روح محررة طائرة... وجسم معلق بالأرض.

ويمر فوق رأسه سرب من الطيور قد تكون عائدة أو لاحقة بها، ويقع من مناقيرها بعض بذور فوق رأسه فلا يكاد يتلمسها ويتأملها حتى يغمغم بصوت لا يسمعه غيره مخاطبا الطيور التي بعدت عن ناظريه... هذه ثمرة شهية لاتوجد إلا في قصر عظيم... إنها بذور نادرة لا يجرؤ كائن على الحصول عليها من هناك إلا إذا اغتصبها ولكن من يستطيع؟ إن من يجرؤ على ذلك لابد أن يدفع رأسه ثمنا

لها... حتى ولو كان ثمنها قروشا معدودات... ويرمي بالبذور بعيدا مرتجفا خائفا كأنه يخشى أن يراه أحد حراس القصر فيكون مصيره الهلاك حتما... و يتمتم لنفسه... هذه البذور حق مشروع للطيور... وهي تلتقطها كلما أرادت... أترى الطيور أكثر وعيا من الإنسان وتقديرا لحقها الشرعي... إن في قصر العظيم ثمارا شهية تتوق نفسي إليها، فهل في مقدوري أن أمد يدي إليها كلما أردت؟... ويكز على نواجذه كأنه يقاوم انفعالات طارئة ويغمغم: هبني استطعت... هل أفعل؟ وهبني فعلت... ما مصيري... السجن... ويلوح بيده في الهواء... مردفا: الطير أكثر جرأة وشجاعة مني... أن الأرض تشدني بسلاسل عتيقة أورثني إياها استسلامي لقانون جائر، ويعود الطير مرفرفا فيرمي إليه بعض البذور قائلا بصوت فيه انكسار ومذلة. خذ طعامك أيها الطير فهو حلال لك... إنك لص شريف... أحل الله لك كل شيء لأنك لا تحاول أن تحبس القوت عن غيرك أو تقيد الرزق بنفسك إنك تأكل وتترك الآخرين يأكلون... هنيئا لك خلقك القويم أنت الذي لم يعلموك مباديء الخلق الكريم... إنك تعيش في الدنيا قانعا بما يسد رمقك لأن العدالة في مملكة الطير لم يمسسها التضليل. فعش بعيدا عن الإنسان ما استطعت أيها الطير لتظل بمنجاة عن جشعه وظلمه وغدره... كم أغبطك أيها الطير لأنك أسمى من الإنسان الذي حبس نفسه وضميره في بوتقة رذائل الدنيا، ولا أظنه يستطيع أن يتحرر من قيود نفسه الآثمة لأنه يستضيء باللهب الذي يشعله من وقود ضمائر الآدميين الذين يبيعون ضمائرهم لقاء كسرة خبز وهواء فاسد، إنه يشعل هذه النار للدفء والاستضاءة... إنه يحرق روحه في لهب الذلة والاستكانة الكامنتين في أعماقه، فإذا انفجر بركان نفسه تحول اللهب إلى ضباب يغلق ضميره ووجدانه فيعمى

بصيرة قلبه وأحاسيس روحه، ويتحول إلى كائن يتطاول بشجاعة مزيفة إلى مرتبة الانسان مدعيا أنه يثور ويحارب من أجل السلام وصدره ينطوي على وحشية متحجرة تأبى الأمن وتنزع للعداء والخصام رغبة في التوسع ونيل أقصى ما يمكن نيله من خيرات الأرض.

ويعود الطير مرفوعا كأنه يفهم لغته فيتجه الناسك صوبه قائلا: أبعد... أبعد أيها الطير وتنح عن الإنسان قبل أن يفاجئك ميكروب تفكيره حاملا إليك نذير العدم... حلق... حلق بعيدا أيها الطير وتغن أن راق لك الغناء لتحجب تراتيل الجنائز التي تنبعث من قصور الطغاة والاقطاعيين... ثم يتنهد في بطء وانطلاق مردفا... ايه يا طير... لك العالم لأنك لا تتعلق بالعالم.

أنا مثلك أيها الطير حر... ولكنني دفعت ثمن حريتي من دمي وعمري... من شبابي ومالي وصحتي وجاهي ولست بنادم على ما بذلت. إذ حلاوة الإيمان والحرية أجمل وأشهى من حلاوة المتع في ظل العبودية... أين أضواء الشموع من فتنة وسحر هذه الربوع؟ أين مكر الغيد اللاهيات من طهر الزهور الناضرات أين مخاوف الليالي القاتمات من أمان الكواكب اللامعات؟... أين حلاوة الصهباء المرة من عذوبة المياه التي أستطيبها مرة بعد مرة؟

و يحين وقت الصلاة... فيصلي في خشوع ثم يبكي بدموع التوبة الخالصة مغمغما... خذي يا نفسي ما يعوزك من هذا النور ليتلاشى ظلام تفكيري الدامس ويحل محله إيماني الحارس... اغتسلي يا نفسي

بدموعي من الدنس الذي طواك في ردائه طويلا وانهلى من النور الإلهي لتعوضي ما فاتك من حرمان الروح.

وعندما يلف الظلام العراء برداء شفيف يبعث الوحشة والرهبة يسكن الناسك ويغيب في طوايا وجدانه حتى يشيع ضوء النجوم المتلألئة فيشيع معها النور في قلبه ويتمنى ساعتئذ لو غاب في أعماق هذا التيه للأبد.

ولكنه عندما يتصور شبح الفناء يقترب منه ترتعش مفاصله، وترتعش معها حبات مسبحته حيث تداهمه خواطر مفزعة لا يستطيع لها صدا، وتبرز له من وراء ذاكرته صور مريعة مخيفة. إنه لا يخاف الموت، لأنه مؤمن راغب في لقاء الله لكنه لا يريد أن يموت هكذا سريعا قبل أن يقضى من عمر التوبة أضعاف ما بعثره هباء في صحبة الشيطان، ويوقن أنه لا يمكن أن يعيش بقدر ما مضى فيهرع إلى مصلاه ليصلي مسبحا مستغفرا مضيفا إلى كل صلاة صلاة متمنيا أن يظل قائما على صلاته حتى تنتهي أيامه.

وينبلج نور الصبح وهو دائب على الصلاة والتفكير... فلما أحس بالنور يوقظ ضميره الهاجع تنبه وشعر بان أطرافه بطيئة الحركة بها الم طفيف خاف أن يشتد، فقام مسرعا ليعالجه بالحركة والتريض، وسار دون أن يدري إلى أين ينتهي مسيره اذ استغرق في تلك العظمة الإلهية التي تتجلى في كل مشهد أمامه، وأحس بالظمأ بعد هذا الشوط البعيد الذي قطعه في الطريق الصحراوي تحت وهج الشمس، وتلفت حوله يبحث عن سبيل لري، ظمئه فلم يجد غير قصر شاهق يقطنه أحد

العظماء فتحول صوبه مسرعا حتى بلغه؛ وتقدم في هدوء نحو رجل يقوم على حراسته وحياه طالبا منه قليلا من الماء.

ورد الحارس التحية بلهجة إشفاق وتحرك ليحضر إليه الماء ولكن سرعان ما تسمر في مكانه في اعتدال وخشوع إذ سمع صوت حركة قريبة من الباب تنبيء بخروج سيد القصر. و نظر الحارس إلى الناسك نظرة خوف مشوبة بالشفقة وخاطبه في غير رفق بصوت يسمعه (الباشا): ابتعد أيها الرجل من هنا، فقال الناسك دون أن يتحرك: لا أظن (الباشا) يمنعك من ري الظامئ··· فصاح الحارس في خوف: ابتعد أيها الرجل ولا تكن سببا في إيذائي··· وقبل أن يتكلم الناسك ظهرت السيارة تنساب في تيه كأنها تعلن عظمة راكبها··· ولما وقع نظر (الباشا) على الناسك أمر السائق بالتريث مشيرا بطرف أصبعه في غطرسة بغيضة مخاطبا الحارس:

أو لم أنبه عليك عدة مرات بعدم السماح لأحد بالوقوف هنا؟ إنهم··· لصوص يستترون وراء الشحاذة··· اطرده حالا ومخصوم منك خمسة أيام··· وانطلقت السيارة وقد تعمد صاحبها إلا يسمع دفاع الحارس عن نفسه أو التماس الناسك، ولم يجد الحارس تنفيسا لما أصابه من عقاب غير أن يطرد الناسك دون أن يروي ظمأه غير آبه لمظهر تقواه وضآلة جسمه وشيخوخته.

وابتسم الناسك ساخرا قائلا:

ليكن (الباشا) لا قلب له لان المال الوفير والجاه العريض غلفا قلبه بغلاف كثيف حجب عنه نور الرحمة وشعاع الايمان... فبات غريبا عنا... لكن أنت من طينتي... مسكين مثلي. ألم تظمأ يوما؟

ولكن الحارس كان مشغولا بما أصابه من خصم جزء من راتبه الضئيل وبذلك ستزيد حالته المعيشية ضنكا وضيقا، ولسوف تزيد بالتالي معاناة صغاره الذين هم في حاجة إلى مليم واحد... نعم هو إنسان يحس ويشفق، ولكن السخط على من أذاه في رزقه الضئيل لم يترك في قلبه محلا للإشفاق على إنسان تسبب في إيذائه. ونظر إليه الناسك مشفقا قائلا:

لا تحزن سأعوضك خيرا بإذن الله بدل القرش قرشين.

ولم يدعه الحارس يتم قوله إذ ظنه يتهكم عليه فأضاف إلى السباب واللعنات التي أنزلها عليه لعنات أخرى. ولم يسكته غير صوت البستاني الذي شاهد ما جرى فأسرع بإحضار وعاء به ماء وقدمه إلى الناسك في عطف أكيد وهو يلوح بيده ليسكت الحارس قائلا...

هل الرحمة زالت من الوجود... حرام عليك... الرجل ظامئ..

ويربت على كتف الناسك مشفقا هامسا:

تعال استرح عندي... تحت شجرة هناك بعيدا عن الأنظار...

وهنا نظر إليه الناسك شاكرا قائلا...

حمدا لله. أشكرك يا ولدي. حفظك الله من كل سوء... إنه معذور...

ثم صافح البستاني مكررا الشكر مخاطبا الحارس...

هون عليك يا أخي، والله سوف يعوضك خيرا في القريب إن شاء الله...

ويقاطعه الحارس مخاطبا البستاني:

(اللي على البر عوام)... لو خصم الباشا منك قرشا بسببه لكان الآن حطاما...

وكأن هذا القول سكينا طعن بها صدر البستاني فثار لكرامته، وراحا يتبادلان السباب واللعنات رغم محاولة الناسك فض نزاعهما، وظلا يتشاحنان حتى ظهر لهما ابن الباشا وقد اتجه نحوهم ليعرف سبب المشادة، فلما سألهما بدأ الحارس الكلام ليبرىء نفسه ويدين البستاني، وكلما هم البستاني بمقاطعته للدفاع عن نفسه قاطعه الحارس في غلظة وشراسة مما اضطر الشاب إلى إسكاته للاستماع إلى الناسك كشاهد. ولما شرح الناسك ما حدث أظهر الشاب عطفا أكيدا عليه، وهدأ روع الحارس مع وعده باستسماح والده منصفا البستاني الذي ترفق بالناسك وانتحى بعيدا ليقدم له معونة مالية.

وتناول الناسك إحسانه شاكرا، وتظاهر بالمضي في طريقه، ولما أيقن أن الشاب ركب سيارته واختفى عاد إلى الحارس، وأعطاه المبلغ

الذي تناوله من الشاب، وعاد من حيث أتى دون أن يترك للحارس الذي وقف مبهوتا فرصة للكلام.

ولم يكد الناسك يمضي في طريقه ويبعد عن القصر حتى فوجئ بالحارس يربت على كتفه في رفق معتذرا عما بدر منه من غلظة وقسوة شارحا، في إسهاب، ما يعانيه من الباشا مما حطم أعصابه وأفقده التزاماته الإنسانية نحو غيره؛ فهو أبدا مهموم محزون لما يعانيه من ظلم وحرمان. ومضطر أن يحرس الباب ليل نهار إذ يخشى أن يترك الحراسة بضع ساعات لينعم بجوار أهل بيته خشية أن يتسلل أحد الفلاحين الذين يحاولون انتهاز أي فرصة للانتقام من الباشا وقاطعه الناسك قائلا:

ولماذا تخضع لهذا الظلم يا أخي: ابحث لك عن عمل آخر.

فيتنهد الحارس في مرارة…

لقد ولدت في هذه الضاحية، ووالدي كان حارسا عنده، وقد ورثت عنه هذا العمل، ولقد حاولت أكثر من مرة أن أهاجر إلى بلد آخر… وكان يمنعني ابن الباشا ويسترضيني، ولقد حدث مرة أن سهر طوال الليل بدلا مني لأقضي الليل مع أولادي… و أشهد الله لولاه – لتركت هنا.

وهنا يبدي الناسك عجبه للفارق الهائل بين سلوك الباشا وبين ولده – ويسأل الحارس عن سبب ذلك فيجيبه بأن الباشا كاد يصاب بمرض عقلي لسوء سلوك زوجته التي تنتمي لأسرة كبيرة… واضطر أن يتزوج بفتاة من أسرة متوسطة كانت تسهر على تمريضه ورعايته،

فأنجب منها هذا الولد، وخافت أمه أن ينشأ مثل إخوته الكبار ميالون للاستهتار والكبرياء المرذولة... لذلك حرصت على رعايته بنفسها، والإشراف على تربيته دون الاعتماد على الخدم كما كانت تفعل زوج أبيه مع أولادها... وقد عهدت إلى مدرس خاص يلقنه أصول الدين فهو لا يترك الصلاة أبدا وأنشأته أمه نشأة دينية أصيلة، عكس إخوته الذين لا يعرفون غير قضاء الليل في مسارح المباذل وأثناء النهار يغطون في نوم التعطل وراحة العربدة.

وأسكته الناسك لكيلا يسترسل قائلا...

اسكت... اسكت يا أخي... اني أعرف جيدا كيف يعيش أمثال هؤلاء الذين توارثوا البطالة والفساد والمجون. عد إلى عملك رحمك الله ورحمنا جميعا.

فصافحه الحارس قائلا أن البستاني يحرس الباب ريثما أعود... فضحك الناسك وهو يقول...

حمدا لله.

فاستطرد الحارس...

هذا شأننا نتشاجر لأتفه الأسباب ولكننا لا نتخاصم أبدا... كل منا يعاون زميله ويقف معه في الشدائد...

فتمتم الناسك...

هذه طبيعة القلوب السمحة الصافية... وهي ثروة الفقراء.

وواصل الناسك طريقه متمعنا في بواعث ما حدث، معللا أسباب شراسة الباشا ووداعة الولد... وأيقن أن للألم أكبر الأثر في التربية والتقويم، وحسن خلق ابن الباشا أكبر دليل على ذلك، وحمد الله على أن الأم في مقدورها أن تعصم أولادها وتجنبهم سوء الانحراف... وحمد الله مرة أخرى الذي جعل الخير يتمشى بجانب الشر ليهون.

ووجد نفسه مسوقا لارتياد طريق بدا له لأول مرة جديدا، فلما سأل عنه قيل له أنه شارع جديد شق حديثا ليصل الى قصر أحد الوزراء، وراق له المضي فيه، ولم يكد يقطع فيه شوطا حتي استرعى نظره جماعة وقفوا كأنهم يتآمرون. فلما اقترب منهم ترامى إلى مسمعه أحاديثهم المختلطة وقد باتت كموج متلاطم تلاحقه عاصفة هوجاء من الآراء المختلفة، وعمد إلى الإصغاء عن قرب فسمع بعضهم يقول:

لقد كتبت الطلب وسأرفعه (للباشا) بنفسي: وقد علمت، أنه لم يعين أحدا بدل الكاتب الذي فصل.

فقاطعه أحدهم:

ومن يوصلك إليه؟ يبدو أنك أبله يا صاحبي.

ويعقب ثالث:

لو كنت تعرف امرأة جميلة أرسلها وسيطة لك.

ويستطرد رابع:

لقد سبقك صديق لي عن طريق وسيط عظيم فاعتذر (الباشا) بدعوى أن الحالة الإقتصادية سيئة جدا، وأنه اضطر لتوفير كثير من صغار موظفي دائرته.

وهنا يثور أحد الواقفين قائلا:

وما علاقة (الباشا) بسوء الحالة الاقتصادية لقد نال حظا وفيرا في البورصة ولديه ثروة لا تقدر. إنه ينعم بحياة فوق مطامع الطامعين. فلو كانت مزارعه قد احترقت مثلا أو كان قد خسر في البورصة كل ما يملك لأصبح له عذره أنه أناني جشع ولا سبيل إلى رد طغيانه إلا بالثورة فثوروا عليه وعلى أمثاله الذين يشربون دماء أبناء الشعب باسم القانون.

ولم يكد الشاب يذكر ذلك حتى يتسرب الخوف والرعب إلى نفوس الواقفين، فيتلفتون ليتأكدوا من خلو المكان، فيقع نظرهم على الناسك الذي كان يصلي تحت شجرة ظليلة أخفاه جذعها عنهم قليلا واستطرد الثائر...

أليس من العار أن نخضع للخور والطغيان؟ وأن أكون أنا مثلا من حاملى أعلى الإجازات العلمية ولا أجد لي عملا لأنني لا أنتسب لوزير، وليس في مقدوري أن أدفع رشوة لوسيط،

ثم صرخ في وجوههم،

ثوروا... ثوروا أيها الجبناء... فالموت خير لكم من هذه الحياة الذليلة النكداء...

ويسكت الثائر ليستعيد أنفاسه بينما يقول أحدهم:

وما نهاية الثورة يا صاحبي؟

فيعقب آخر:

تطوح رءوسنا في الهواء لتكون سمادا طيبا في أرض الإقطاعيين فيزداد حصادهم، أما نحن وأمثالنا فلن نستفيد.

فيعود الثائر الى سخطه قائلا:

قد يبدو لكم ذلك... ولكن حرارة ثورتكم ستحرك ضمائر المخلصين فيعملون على الأقل للأخذ بثأرنا، وتطهير البلاد من جلادينا، ومتى قامت المعركة بين أصحاب الحق من أمثالنا وأصحاب الباطل فسيكون النصر لأتباعنا في النهاية حتما باذن الله...

ويسكت ليتأمل صدي ثورته على وجوههم ويحذرهم آخر قائلا:

اخفتوا أصواتكم فإن جواسيس الطغاة تجوس الأرض في كل مكان... قولوا إننا نريد أن نعطيهم عملا وجهدا ونأخذ منهم قدر ما يستحق هذا العمل لنستطيع على الأقل أن نواصل العمل وبذلك يستفيد الوطن منهم ومنا.

ويبدو أن هذا الرأي لم يعجب الثائر فيخاطب صاحبه قائلا:

أو تظن أن الاقطاعي من الإيمان بمكان حتى يعطيك من ماله قدر ما تعطيه من عملك؟ كم أنت ساذج يا صاحبي...! ان لي ولك حقا في خيرات بلادنا التي اغتصبها الطغاة ظلما وعدوانا، وساعدهم على هذا القانون الذي وضعوه لأنفسهم... وبذلك أصبحت الثروة لفئة دون فئة، وانمحت العدالة وتلاشت المساواة، وكانت النتيجة أن تلاشت القيم المعنوية من البلاد... إننا في أشد الحاجة يا صاحبي إلى قانون يحدد الملكية ويضيف الزائد إلى خزانة الدولة لاستغلالها في الصالح العام وإصلاح حال الفقير العاجز...

ويرد عليه البعض ضاحكا في تهكم...

وماذا في وسعك أن تفعل؟ إن الملايين خاضعة لهذا النظام الفاسد فهل يمكنك أنت الفرد المظلوم أن تثور وتقف في وجه الظالم؟

ويرد الثائر، وقد أهاجه هذا التحدي،

ولماذا لاتؤمنون بأن شعور المواطنين كشعوري تماما، وأن الثورة قائمة في صدر كل مواطن تنتظر اللحظة الحاسمة؟...

فيقاطعه أحدهم:

بل قل تنتظر القائد الفدائي الذي يحمل الشعلة لينير لنا الطريق

فيردد الجميع:

بالضبط... بالضبط.

وهنا يصرخ أحدهم...

اسكتوا... ها هي ذى سيارة الباشا..

ويسرع الشاب صاحب الطلب بالجرى في اتجاهها وهو يتمتم:

سأعترض السيارة.

ويحاول فعلا اعتراضها، وكلما جنحت لجهة تصدي لها. وهنا يصرخ الباشا في السائق:

تريد إتلاف السيارة من أجل حيوان كهذا؟... إن البلد تموج بهذه الحيوانات التي يجب أن تباد بأي وسيلة... حذار أن تتخطاه.

وترتعش يد السائق، على الرغم من جرأته، كلما وجد السيارة تقترب من جسم الشاب الذي تصدر قبالتها والباشا يأمره في عنف، بأن يسير غير آبه به. ولكن السائق ينحرف بها يمينا وشمالا في براعة ودهاء غير آبه لأمر الباشا، ثم يمرق بسرعة متفاديا الشاب، في حين يظن الباشا أن عجلات السيارة قد طوت الشاب طيا، فيبتسم ساخرا مسرورا لنقص الحيوانات الآدمية حيوانا كما يسميها... ولا يدري أن عجلات السيارة طوت كلبا ميتا كان ملقى على الطريق، كما لا يدري أن الشاب استطاع أن يتعلق بالسيارة فلما ترجل الباشا وجد أمامه ليقدم

إليه الطلب في شجاعة مرفوع الرأس... و يرى الباشا لأول مرة شابا جريئا يخاطبه في غير ذلة ومسكنة، فيجن جنونه ويأمر الحرس بالقبض عليه بدعوى أنه وجده يتسلل داخل القصر للسرقة. و عينا يحاول الشاب أن يدافع عن نفسه إذ لا بد من أن تضم قائمة المسجونين اسمه الكريم تنفيذا لأمر الباشا الآمر الناهي.

ويرى رفاقه كيف قيد إلى المحاكمة كأنه اقترف إثما لا نهاية لفظاعته فيثورون مهددين ومتذمرين، ولكن أحدهم يلتزم جانب الحكمة فيخفف من ثورتهم قائلا

أن أي تصرف يخالف القانون يدفع بكم حتما إلى السجن، وبذلك تفقدون ثقة الشعب و كرامتكم، أو تصبحون مشبوهين في نظر الشعب فلا يستمع لكم ولا يتأثر بكم، فعلينا إذن أن نفكر في طريقة لإنقاذ صاحبنا، وإنقاذ الشعب كله من براثن مثل هؤلاء الطغاة حماة الاستعمار...

ويقاطعه أحدهم...

لا... لا، يجب أن نثور على هذا الظلم الذي لا يطاق فحاربوا الظلم لنقضي عليه أو يقضي علينا فنموت كراما.

وتختلط الأصوات وتتعالى الهمهمات وهنا يشفق الناسك عليهم فيدنو منهم ويتوسطهم قائلا بصوت الحكيم الرزين - وكان في طلعته من المهابة والوقار ما يكفي لإسكات الجميع ويشملهم سكون الرهبة والدهشة وهو يتكلم:

رفقا بنفوسكم أيها الشباب لا تتعلقوا بالأسماء... إنما افهموا معناها ومغزاها ومرماها... كل دولة كبيرة تستتر وراء اسم من الأسماء كالرأسمالية والديمقراطية والدكتاتورية والبولشفية وكلها كلمات لغير مسمى وعناوين زائفة وضعت لحركات غير محددة. كلمات مغرضة في استعمالها. لا تكونوا كالببغاوات ترددون الكلمات دون أن تفهموا لها معني. فلو عرفتم جوهر الرأسمالية لأدركتم أنها تؤدي إلى استعباد الأغنياء للفقراء وإلى تسلط القوي على الضعيف. والديموقراطية خلق من أخلاق الأنبياء تخلق من الخوف أمنا ومن البغض حبا، وهي شعار الروح الطيب السمح والقلب المؤمن الكريم، ولكنهم يعبثون بها ويتهاونون في قداستها و نبل غايتها وسمو رسالتها، والدكتاتورية مبدأ أقره المنطق ولكنه إذا وجد في غير الأيدي الأمينة يكون كالجواد الجامح الذي يحطم العربة.

وتوقف عن الكلام عندما تحول الشبان عنه إلى امرأة حلوة أنيقة ظهرت في الطريق تركب سيارة فخمة وبجانبها امرأة عجوز، واسترعت نظره أيضا عندما ترجلت أمام قصر الباشا، وقبل أن تغادر العربة أسرع أحد الشبان ليسترق السمع وهي تخاطب العجوز بلهجة مريرة:

لا أظنني أعود قبيل الشروق مرضاة للباشا،

ثم تنهد وهي تغمغم كأنها تخاطب نفسها،

لشد ما أمقت صناعة الحب، ولشد ما أكره مجالسة هذا الرجل. رب تب عليّ...

ثم تجفف دمعة طفرت وهي تتجه صوب باب القصر و العجوز تواسيها قائلة...

اصبري يا بنتي إن الله رحيم...

وقبل أن تدخل المرأة تلحق بها العجوز هامسة:

لا تنسى الرجل... إنه ينتظر هناك حسب وعدك... احضري معك الكارت عليه كلمة من الباشا تكفي ليتسلم الرجل عمله.

وتهز المرأة رأسها وهي تقول، لتطمئن العجوز،

لن أنسى.

في هذه الأونة يكون الناسك قد ترك الجماعة وراح يتمشى قرب باب القصر ليلمح المرأة عن كثب. فعل ذلك بدافع شعوري خفي، ووقع نظر المرأة عليه وهي تودع المرأة العجوز فارتجفت واستدارت على عقبيها، وابتعدت عن القصر كأنه غير مقصدها، واتجهت ناحيته وقد خيل إليها أنه يرقبها عن عمد، فاضطربت وظنته يتبعها لأمر ما... ومر بذهنها كل ظن مخيف يبعث على الفزع والقلق وذكريات رغم مرور الزمن لم تزل تاركة في ذهنها أعمق الأثر، وعمدت إلى تضليله، فراحت تتجول كأنها جاءت في هذا المكان للرياضة. ولكن هذه المحاولة لم تقصه عنها، بل راح يتأملها بدقه حتي شعرت بأن سهما

جارحا صوب إلى صميم فؤادها، وشعرت بأن قوة جذب خفية تدنيها منه لتتبين حقيقة مرماه... ودون تردد اقتربت منه لتخاطبه ولكن النطق خانها والعي أخرس لسانها، ولكي تهرب من الحرج فتحت حافظتها لتقدم إليه بعض النقود... فلم يمد الرجل يده وابتسم في عطف واشفاق وهو يحملق فيها بعيني التحسر والألم قائلا...

شكرا شكرا لك يا سيدتي... بارك الله فيك... هناك من هو أحوج مني بهذا العطف الكريم،

وشاء أن يقول لها شيئا آخر يعود بها إلى عقلها وإيمانها فراح يفكر كيف يبدأ الحديث، وهنا أحست المرأة أن مغناطيسيا روحيا يدنيها منه، وأحس الناسك بفراسته وعمق إحساسه أن طبيعتها الأصيلة عفة، ولكن ضرورة الحياة الملحة هي التي تدفعها إلى الرذيلة غصبا، وشعرت المرأة برغبة ملحة في محادثته، شاعرة بأن مسا من النور يطوف بصدرها ويرتفع بها رويدا... رويدا حتى خيل إليها أنها توشك أن تطير نحو السماء، اذ لفها شعور عميق أكسب الناسك صفة الأولياء الصالحين؛ وأن التقرب منه فيه بركة وخير لمن يتصل به، فقالت في استحياء:

أتقرأ طالعي؟... يبدو أنك ولي صالح.

وهنا وجد الناسك منفذا لحديثه ووسيلة لمخاطبة عقلها وأحاسيسها علها تتنبه وتفيق من سبات الضلال المغري، فأجابها على الفور وهو يلعب على الرمل بطرف عصاه كأنه يستمع إليه...

هيه... أنت طيبة القلب يا سيدتي، ساقتك الضرورة إلى المجزرة، وجزارك قوي متمهل يحلو له أن يمتص دماءك في بطء... ليستمتع بك طويلا بدل أن يقضي عليك مرة واحدة... هيه يا ابنتي... مسكينة... من أجل غيرك تبيعين نفسك بثمن بخس مهما بدا لك غاليا... سيفنى الثمن يا ابنتي ولن يبق لك غير الحسرة والندم... يمكنك استرداد جوهر نفسك بالتوبة والقناعة.

قالت وقد بلغ بها التأثر أقصاه ناظرة إليه بعينين دامعتين:...

حدثني عن مستقبلي...

قال في اتزان:

لا يعلم الغيب إلا الله... أن نجمك يا سيدتي ينبىء أنك تحفرين قبرك بيديك، وسيحمل جثتك فقير يستجدي ثمن كفنك... أن المال الذي تجمعه الرذيلة تذهب به الريح إلى الشيطان...

وسكت مترفقا بها لما ظهر عليها من أسى ولوعة حيث جلست على الأرض تبكي كأن ضميرها تنبه في التو، فعطف عليها وربت على كتفها قائلا...

غفر الله لك، توبي إلى الله أنه يقبل توبتك.

وشعرت بأن مسا لطيفا مريحا يمر على صدرها باعثا في أعماقها رغبة صادقة في التوبة. فقالت...

أنا حقا في حاجة إلى التوبة، ولكنني مضطرة الآن للذهاب إلى الباشا لأطلب منه توصية لقريب يطلب عملا

قال:

لا ضير... وعليك مهمة أخرى

وقص عليها أمر الشاب الذي قدمه للمحاكمة، وطلب إليها المطالبة بالعفو عنه، فتأثرت المرأة وقامت من مجلسه وهي تقول، في ألم ومرارة...

مسكين كنت أظن أن المرأة وحدها هي الضحية في هذه الحياة فاذا بالظلم والعدوان لا يعرف الجنس ولا الدين ولا الوطن... أنه كالبغض وكالحب أو أي معنى يمس الروح والقلب والعقل.

وتنهدت في مرارة ثم استطردت في جد وحماسة...

ستكون مهمتي إطلاق سراح الشاب وتعيينه أيضا.

وتأهبت للانصراف، وعندما مدت يدها لتقبل يده في خشوع سحب يده وهو يقول...

إنك امرأة حلوة وعلى استعداد لكي تكوني زوجة صالحة، فما الذي دفعك إلى هذا التيار ولا أحسب إلا أن هناك من يرتجيك زوجة؟

فعادت وجلست على الرمل أمامه وقد اعتزمت أن تفتح صدرها له حتى النهاية قائلة:

إني أتوسم فيك صلاح المتقين وطهر الصالحين، فاسمع حكايتي واقض في بعد ذلك بما أنت به قاض، فقد عاهدت الله أن أسير وفق هدايتك...

توفيت والدتي على أثر ولادة صغرى أخواتي، فقمت برعايتهم لأني أكبرهم ثم توفي والدي تاركا لي خمسة من الإخوة ليس فيهم من يستطيع أن يعمل لقاء قوته على الأقل... طرقت باب العمل فأغلقت الأبواب دوني لأن تعليمي بسيط لا يؤهلني لأية وظيفة، وأخيرا قدمتني سيدة طيبة كانت صديقة لوالدتي إلى قريبة لها في إحدى الجمعيات فألحقتني بالمستشفى لدراسة التمريض، وبعد إتمام دراستي انتدبتني المستشفى لتمريض عظيم من العظماء في بيته، ويعلم الله أن تفكيري في هذا الوقت كان لا يتحول عن عملي وغايتي الإنسانية العليا ومهمتي الشريفة النبيلة. وكان إخلاصي لعملي وإتقاني له من أكبر بواعث شفاء المريض العظيم... وفي إحدى الليالي بعد أن استرد صحته وكنت على وشك العودة إلى المستشفى، استدعاني وطلب أن أجلس بجواره، فترددت في حياء وأدب. ولكنه جذبني إلى جواره، وبدأ يشكرني على حسن رعايتي وعنايتي، ولم يدعني أفلت من يده - فأبيت - واستأذنته في الانصراف، فحاول أن يغريني على البقاء بأساليب العطف ومغريات المادة، ولكنني أصررت على الرفض وتركته غير آبهة.

ولم أكد أصل المستشفى حتى استدعاني المدير: ولشد ما كانت دهشتي حينما انهال علي بالسباب واللعنات. وعرفت من ثنايا حديثه أن الباشا المريض اتصل به وأخبره أنه رآني في موقف غير شريف مع سكرتيره ولم يترك لي المدير فرصة للدفاع عن نفسي··· وطردني في الحال من المستشفى، فعدت إلى داري يائسة مهمومة لا أدري ماذا أفعل من أجل الصغار على الأقل. وكانت الصديقة الطيبة تعلم جيدا صدق طهري وحصانتي فعادت إلى المسعى حتى ألحقتني بعيادة طبيب. ولاحظت أن الممرض الذي يعاونني، وهو موضع ثقة الطبيب من زمن بعيد، يستغل المرضى استغلالا فظيعا دون علم الطبيب؛ ويفرض عليهم عمولة خاصة ليقرب موعد مقابلة الطبيب. ولم أشأ أن أشترك في هذه الجريمة. وأبيت الاشتراك معه حرصا على كرامتي وشرف مهنتي قانعة بمرتبي الذي أتقاضاه وبما يقدمه إلى المرضى بعد شفائهم كجائزة على عنايتي واهتمامي بهم.

وبدأ يغريني بأساليب العاطفة، فلما أعرضت خاف أن أكشف أمره فوشي بي إلى الطبيب متهما إياي بمغازلة شاب مريض في جرأة مخزية.

واكتفى الطبيب بطردي حرصا على سمعة عيادته، وسرت في الطريق إلى داري لا أدري ما الله فاعل بي··· وإذا بسيدة تصطدم بي عن غير عمد مني و يوشك أن يقع بيننا شجار لولا تدخل أحد المارة فترفق بي وصرف المرأة في لطف ولياقة وسألني عن والدي، ولم يكد يعلم من هو حتى أظهر عطفه وأخبرني أن والده كان صديقا له، وبالغ في الاهتمام بي فرافقني إلى المنزل ليطمئن على إخوتي، ولما أخبرته بما

حدث لي أبدى استعداده للتزوج بي ليريحني من هذا العناء وليقوم بتربية إخوتي. وكان من الطبيعي أن أقبل بعد أن أظهر لي عطفا وحنانا لم ألمسه من رجل قبله وبعد أن لازمني سوء الحظ طويلا... وتم زواجنا وأنجبت عنه طفلا، وقد ترك لي حرية العمل كممرضة حرة لأعينه على تربية إخوتي... ومرض ولدى قبل أن يتم الشهر الأول. وكان في هذا الوقت لا يغادر البيت بدعوي مساعدتي في شؤون البيت ولما اشتد مرض ولدي طلب مني أن يأخذه إلى طبيب أخصائي واضطرت أن أفتح أمامه الصندوق الذي كنت أحتفظ فيه بمالي الخالص وكنت حرصت على ألا أمد يدي إليه إلا إذا اضطرتني الحاجة الملحة حرصا على حلي والدتي ومكافأة أبي التي صرفت له من الحكومة لتربية إخوتي. وأبي أن أرافقه مع الطفل فانتظرت في البيت ريثما يعود... ومضى اليوم وشطرا كبيرا من الليل ولم يعد، وتوجست خيفة وظننت أن الطفل توفي في الطريق وهو يخشي مواجهتي به خوفا عليّ. وذهبت في اليوم التالي إلى عيادة الطبيب الذي أخبرني أنه ذاهب اليه... ولشد ما هالتني أنه لم يذهب. وعدت كالمجنونة إلى البيت ظنا أنه عاد بعد خروجي فلم أجده. ووجدت الصديقة الطيبة التي حضرت زواجنا في انتظار... ترتدي ملابس الحداد... وبدأتني بالتعزية... وأيقنت أن الولد مات واتجه تفكيري نحوه... أين هو؟...

واستطردت الصديقة قائلة... اهتمي بصحتك من أجل ابنك... وأخواتك، ألم تتصل بك المستشفى بعد لاستلام جثته. أم اتصلوا بأهله؟... فتملكتني الدهشة... وسألتها... عمن تتكلمين... قالت: زوجك... قلت: تعني؟ قالت... أو لم تعلمي أنه قتل في حادث تصادم؟ أو لم تقرئي الأخبار؟ وكلفت أخي باستحضار الأخبار...

ولشد ما روعني رؤية صورة زوجي مضرج بدمائه في حادث سيارة كان يركبها مع امرأة في الطريق الصحراوي... وليس معه ولدي... وكدت أجن لولا ترفق امرأة بي التي ساعدتني لمعرفة مصير الولد الذي لم يظهر له أي أثر... وبعد بحث وعناء استطعت أن أهتدي إلى شقيقته التي أخبرتني أنه زارها قبل الحادث بأيام، وأخبرها أنه سيحضر إليها طفلا أنجبه من زوجة اعتزم أن يطلقها لأنه سيتزوج بامرأة أخرى غنية... وعرفت من أخته أنها رفضت قبول الطفل لأن العلاقة بينهما على غير ما يرام لسوء سلوكه وعدم رضاها عن تصرفاته، لأنه يستغل الزواج كتجارة للحصول على ما تملكه المرأة التي تقع فريسة له. وهو ماهر في اصطياد النساء... وفجأة وجدتني أفقد زوجي وولدي... ولم تقف الصدمة عند هذا الحد، بل زادت عندما اكتشفت سرقته لحلى أمي ومكافأة أبي، ولم يترك لي مليما واحدا في الصندوق... ووجدتني أواجه هما جديدا بجانب إخوتي الذين يتضورون جوعا.

وانتهى الأمر بعد أن اضطررت إلى بيع أثاث البيت قطعة قطعة لأطعم إخوتي، ثم طردتني صاحبة البيت إذ مرت الشهور دون أن أدفع لها أجر المسكن، إذ كان ثمن المنقولات التي بعتها يكفي بالكاد لإعالة إخوتي... وأفسحت لي الصديقة الطيبة غرفة في مسكنها ريثما نبحث لي عن عمل... ولكنها، لسوء حظي مرضت مرضا شديدا استلزم مني تمريضها... وانتهز زوجها فرصة ملازمتها الفراش فراح يتودد إليّ... ولكنني كنت أتجنبه، وأحاول قدر المستطاع عدم الاختلاط به... وفي أمسية ما أحضر لإخوتي تذاكر سينما وصحبهم إليها ليرفه عنهم... وصعدت بعد أن نامت المريضة إلى غرفتي

لأستريح بعد جهد التمريض طوال النهار وحرصت ألا أستسلم للنوم حتى أطمئن على عودة إخوتي، وأخذتني سنة من النوم بالرغم مني··· وبعد مضي فترة وجيزة أحسست بيد تطوقني فظننته أخي ينبهني، ففتحت عيني لأطمئن على إخوتي، ولشد ما أفزعني أنه زوج الصديقة المريضة. وكدت أصرخ ولكنه وضع يده على فمى. وملكت أعصابي خوفا على صحة المريضة فلطمته في عنف، وفتحت له الباب وهددته بالاستغاثة، وهبط الزوج مخذولا مغيظا. ورغم حيطتي الشديدة ظل الرجل يطاردني في كل مكان بالبيت حتى لاحظت الخادم وبدأت ترتاب في وتنظر إلى نظرة احتقار ظنا منها أنني أجاريه متكلفة صده أمامها. وبدأت تأكل قلبها لما لاحظت من تصرفاتها مع سيدها وهمساتها معه في خلوة الغيرة وهو يدافع عن نفسه، ويتهمني بالتقرب إليه رغم تجنبه لي، ويطول حوارهما وينتهي بتهديد الخادم له إذا لم يكف عن مغازلتي فسوف تخبر سيدتها··· وهنا التزمت جانب الحيطة ووجدتني مضطرة إلى ترك المريضة بدعوى أنني دعيت للعمل في بلد آخر. وذهبت في التو لزيارة سيدة من أسرة كبيرة كانت تتردد على الطبيب في العيادة. وكانت كريمة فيما تمنحني إياه من مال كلما زارت الطبيب··· ذهبت إليها عساها تجد لي مخرجا من محنتى أو تجد لي عملا. ورحبت السيدة بي ووعدت بمساعدتي وأفسحت لي غرفة في حديقتها بلا مقابل. وكانت لبقة ظريفة فانسقت إلى عطفها، ورحت أتردد عليها؛ وأغرانى مظهرها على الاطمئنان إليها. واهتمت بي وأولتني عنايتها، وراحت تصحبني معها في الزيارات، وبالغت في تكريمها فمنحتني بعض ملابسها؛ وعلمتني كيف أتجمل وأتزين لأظهر معها بمظهر يليق بها وقد كانت مغرمة بزيارة سيدات الطبقة الراقية. وهناك رأيت ما لم أره من قبل··· كيف يقضى أبناء سادة البلد، كما

بزعمون، الليالي الحمراء... أي خزي وأي عار! صعب عليّ في بداية الأمر أن أتمشى مع توجيهات هذه السيدة وكدت أهرب من بيتها، ولما شعرت باستنكاري لتصرفاتها صارحتني قائلة:

أو لم تحاولي أن تعملي عملا شريفا؟ أو لم تعملى جهد طاقتك على حفظ شرفك وكرامتك فكان نصيبك الفشل والخسران؟... إذن لم يعد للفضيلة أثر في هذا العصر يا صغيرتي حتى يكون لها حارسة من مثيلاتك المسكينات... انظري إلى العظماء والوجهاء وكبار رجال الدولة وبعض زوجاتهم وبناتهم وإخواتهم، فماذا تريدين من قوم تحتل الرذيلة فيهم مكان السيادة؟... أرأيت كيف تنجح أساليب الرذيلة في هذا العصر؟ أنا أعتقد أنها وسيلة للرزق بأسلوب العصر.

وكانت تضحك في سخرية وجنون عندما تقول ذلك وهي تدخن السيجار وفي عينيها بريق الألم الممض الدفين... ألم الخضوع لغير ما تهوى... لقد عرفت يا سيدي أن كثيرات من النساء المستهترات أرغمن على سوء السلوك إرغاما تعجز عن مقاومته أية قوة في العالم.

فقاطعها الناسك...

الإيمان قادر على رد هذا الإرغام!

قالت:

أنا معك إذا كان هناك وقت للتفكير في الإيمان... ولكن ماذا يفعل العقل إذا كان كل وقته يفكر في كسرة خبز والقلب في وسيلة يرفق بها حاشية من يمنح هذه

الكسرة؟... اسكت... اسكت... يا أبي... إن الحديث في هذا الشأن لا نهاية له... النهاية... في إحدى الحفلات بعد أن أثرت على السيدة وجعلتني طوع بنانها جمعتني المصادفات بالباشا الذي طردني، فلم يعرفني إذ كنت قد أصبحت بفضل صناعة التجميل غادة فاتنة، فجن جنونه بي؛ وراح يغدق تحت أقدامي من الذهب ما يغري على مجالسته والتودد إليه... لا طمعا في حبه أو ماله، ولكنني وجدتها فرصة للانتقام منه، إذ لم ينسني ولهه الذي يبديه وذهبه الذي يغدقه على ما نالني بسببه من تشويه سمعتي وهتك كرامتي.

وبعد أن جشمته الصعاب من بذل المال الوفير وإهدار كرامته وإذلال رجولته، قبلت أن أزوره في قصره بعد أن شاع بين الناس أنني عشيقته، وراح أصحاب الحاجات يلجأون إلى ابتغاء تحقيق مطالبهم. ولا أكتمك أنني من أجلهم ارتضيت لنفسي أن أكون عشيقة رجل نذل لا يعرف من الكرامة غير اسمها ولعل إيثار مصلحة غيري على نفسي فيه تكفير خطيئتي التي أرجو الله مخلصة أن تنتهي بالتوبة قريبا إن شاء الله.

وسكتت عند هذا الحد، وانطلقت تضحك في سخرية حتى دمعت عيناها والناسك مصغ في ذهول... ثم عادت إلى الكلام قائلة:

كثيرا ما كانت صاحبتي أو على الأصح موجهتي في هذا الطريق الشائك تسألني كلما تنبه ضميري وحاولت أن أهرب

من أهوائي إلى طريق آخر أبحث فيه من جديد عن عمل شريف... أيهما على حق في الحياة... معشر الأغنياء الذين يتاجرون بالشرف أم الفقراء الذين يتسولون محتفظين بشرفهم؟ وهل الفقر نقمة أم نعمة؟ فإذا قلت لها بل نعمة ولا ريب قالت: إذن لماذا لم يخلقنا الله خلقا آخر يتناسب مع احتمال الجوع والمرض والحرمان فنقنع ونعيش؟ فأقول لها: هناك الزاهدون القانعون المحرومون. فتسفهني قائلة... هؤلاء خلقهم الله للزهد والقناعة والحرمان. كالأنبياء والأولياء... وأنا وأنت لسنا منهم... إذ لو كانت الناس كلها كذلك لانمحت من الوجود صفة النبوة والولاية. وتخفف من لوعتي مستطردة... ثم من يدري ألا يصح أن عذابنا هذا، وإن بدأ في مظهره سعادة ممتعة... تكفير لأخطاء أسلافنا، وأن أرواحهم تتعذب الآن لأنها تدفع ثمن ذنوبها منا... أو قد يصح الله أراد أن يحرقنا بالنار في مستهل حياتنا لنستطيب حياة النعيم في نهاية دنيانا.

وسكتت الغانية لتجفف دموعها... فتألم الناسك لها مشفقا قائلا في تحسر أتبكين؟... فتكلفت الضحك لتهرب من إحساساتها الباطنية ثم استرسلت قائلة:

إن الدودة آفة النبات وآفة الأغنياء الغانيات... تصور يا سيدي في الوقت الذي يمنح الغني مئات الجنيهات لإحدى الغانيات يبخل على محتاج أو جار مسكين بمائة من المليمات.

وغلبتها دموعها فسكتت، ثم غالبتها وهي تنظر إليه نظرة الرجاء في التوبة والرغبة في أن يعينها. ثم تستطرد بصوت حزين متكسر...

أنا لا أبرئ نفسي من وصمة الإثم... لكن ما حيلتي... قل لي...

قال:

هيه يا ابنتي... ما عساي أقول لك...

ويطرق مليا ثم يقول...

إن العمل يا ابنتي هو الطريق الوحيد الذي يكفل لك ولأسرتك حياة رضية بعيدة عن الرجس والدنس؟

قد يغفر الله لك ما تقدم من ذنبك لأنك اقترفته في البداية مرغمة واسترسلت فيه لتسعدي الآخرين... ولكن لو أن كل من ينشد الخير لا يتخذ غير الشر سبيلا لانمحى الخير من الوجود يا ابنتي... إنما هناك سبل توصل للخير حتما تقصر أو تطول أحيانا... المهم لا بد أنها مؤدية للخير إذا صح عزم الراغب في الخير.

فقاطعته...

إنك طيب القلب وعليم بما يدور في المجتمع...

فقاطعها في حزم بلهجة الآمر...

أمامك يا ابنتي مكتب العمل والمؤسسات الاجتماعية تكفل لك حياتك وحياة إخوتك و تهيء لك أي عمل شريف. كما في مقدورك أيضا الاستعانة بخبرة وإرشاد المؤسسات الاجتماعية وهي كفيلة بمعاونتك.

فتقول:

أن قلبي لم تمسه يد الرذيلة، أنه ما زال عفا... أدعو الله يا أبي أن يرحمني ويمنحني التوبة والمغفرة... وسوف أحاول أن أعمل بنصحك بعد أن انتهى من مهمتي اليوم التي أخذتها على عاتقي فإن بي رغبة صادقة لتحقيقها...

ثم تتأهب للانصراف بعد أن تنظر إلى ساعتها قائلة:

لقد أزف الوقت ولم يبق على خروج الباشا غير دقائق...

ثم تحاول أن تقبل يده فيأبي طالبة منه الدعاء ليغفر الله لها. وتأخذ طريقها بإحساس جديد تجر أذيالها كراهية تسير في طريق الدير تفكر كيف تتخلص من آثام الدنيا لتعيش آمنة راضية. ثم تبتسم في مرارة لتكن مشيئة الله.

وعاد الناسك إلى محرابه منهوك القوى كأنه خرج في التو من معركة دنيوية هائلة، وقد ظلت مشاهد حديث الغانية التي مرت به تكبر وتتجسم فراح يفكر في عمق عن مآل الشباب والفتيات في هذا العصر. وراودته أخيلة تبدو مظلمة فيرتعد، ثم تنعكس عليها إشعاعات ساطعة فيطمئن... ولم يكد يستكين حتى أطل عليه من وراء ضباب الماضي

خيال بعث ما يثير خواطره فيصرخ بصوت مخنوق كأن أفعى لدغته ويتمتم...

سبحانك ربي أللهم أنقذني من خواطري كما أنقذتني من رغباتي. لقد نسيت وجود المرأة يارب، فأقم بيني وبينها حجابا كثيفا.

وصمت عن لوعة حري، وغمض عينيه كأنه يحاول ألا يرى طيفا أمامه. ولكن الطيف يأبى أن يفارقه فيعاكسه بأخيلة تتصل بماضيه البعيد، ويجد نفسه بالرغم منه تحت تأثير ذكريات أطرق لها باكيا ثم تنبه لنفسه... وكأنه ندم على لحظات قضاها في مسايرة هذه الذكرى المروعة فغمغم:

تبا للمرأة فيها الحياة وفيها الموت. في دنياها الخلود والفناء والحسن والقبح... إن شاءت ارتفعت بنا إلى السماء أو هبطت بنا إلى الدرك

وهنا تتندى عيناه بالدموع فيهرب من أساه الدفين بالتسبيح ليطرد عنه شبح بعث هذه الهواجس... ولكن انفعالاته لا تهدأ فيظن أن شبح الماضي البغيض يطارده، فيترك مكانه كأن الشبح قائم فيه ويخرج مسرعا ليأخذ مكانا آخر مخاطبا نفسه لقد نسيت كل شيء. ولم أعد أحفل بشيء. وليست هناك قوة في العالم تحول تفكيري ومشاعري عن الله... وفي عزم أكيد استعاد طمأنينته، وتشبث بذكر الله مرددا تسبيحه لينسى كل شيء، وأخذته موجة من الروحانية ألقته على شاطىء الأمان فاستراح، وبينما هو تائه في بيداء تأمله الروحي

بالقرب من محرابه يمر به بعض الأشرار فيذهلهم جلوسه على هذه الصورة الغريبة، وقد بدأ مطرقا مفكرا ساهما يبدو على محياه ظواهر الانتعاش الروحي ويصوره هدوؤه على هيئة تمثال جاثم.

واستوقفهم أحدهم قائلا:

من هذا؟ أمن الإنس أم الجن؟

ويعقب غيره، في سخرية، قائلا:

دعوه قد يكون ساحرا فحذار أن تقتربوا منه ليكشف أمرنا...

فيقاطعه غيره:

ولماذا لا يكون زاهدا!؟

فيعقب أحدهم متهكما،

وهل تظن للزهد وجودا في هذا العصر الذي شغلته أضاليل البشر؟

ويضحك الساخر متهكما...

ولم لا يكون رئيس عصابة جعل المخبأ محرابا، ولبس مسوح الزاهد إمعانا في التنكر؟

فيقول آخرهم بصوت هادئ...

ولم لا يكون باحثا أو محققا جاء من وراء البحار ليكتشف ما وراء الصحراء من أسرار؟

وهكذا يطول بهم تبادل التخمين والتحذير كل حسب تفكيره حتى ينتهي أحدهم بقوله، في خبث ولهجة حاسمة كأنه اهتدى إلى مفتاح السر:

يمكننا أن نتبين حقيقة أمره

ثم همس لهم بما دار بخلده في حذر، كأنه يخشى أن ينقل الهواء ما جاش بخاطره إلى الناسك. فهللوا لقوله كأنهم وقفوا على حل اللغز. وصاح أحدهم مهرجا:

لقد أصبحت عرافا يا صاحبي...

وأخيرا يتكلم أحدهم وقد كان صامتا:

لعنة الله عليكم. أتدفعون إليه شيطانا وقد يكون مؤمنا بحق...

فيتحداه الخبيث...

ليس في هذا الزمن يا صاحبي... لقد تلاشت الروحانية منذ أنطق الإنسان الحديد...

فيقاطعهم من لم يزل في قلبه لمحة من نور الإيمان.

وهل الإنسان هو الذي أنطق الحديد يا غبي؟ أو لم يقل الله تعالى في كتابه العزيز «وعلم الإنسان ما لم يعلم».

فيضحك الساخر مقاطعا...

متي كنت فقيها؟ ولماذا لم تتخذ هذا الإيمان وسيلة لرزقك؟

فيثور الآخر

خسئت بالعين: أنت مفسدي وشيطاني.

ثم يتنحى عنهم ثائرا،

دعوني أرحل فقد تعبت، ولا قدرة لي على المضى معكم في هذا الطريق المظلم الملغم بالشرور. إني أفضل أن أحمل الأثقال فوق كتفي لقاء قرش أسد به رمقي، وأنام طوال الليل مطمئن البال مرتاح الضمير يعوض نومي الهادىء قله غذائي.

ويقبض رئيس العصابة على يده مهددا...

أبهذه السرعة تريد أن تتخلى عنا؟... أنملىء لك الطريق بالورود والرياحين ونضيئه بالشموع والقناديل لتسير وفق هواك؟

فيتحداه الثائر...

سر فيه ومن معك آمنين... أما أنا فلم أعد أحتمل الاستسلام للشر الشنيع، أنه إيذان بالموت المريع.

ويلوح بيده كأنه يودعهم لغير رجعة ويخطو بضعة خطوات وهم يتبادلون نظرات الحيرة والغيظ وينبري أحدهم متأبطا ذراعه متكلفا الرفق قائلا،

أتظن أنه من السهل أن تفارقنا؟ يا صاحبي لن يفرقنا غير الموت. لقد تعاهدنا على الخير والشر،

فلا يأبه له ويقاطعه في صراحة وإصرار،

صدقوني لم تعد لي رغبة مطلقا في مؤازرتكم والعمل معكم في الحياة بأسلوب الشر. اطمئنوا، لن أكشف أسراركم، فاذا أفشيتها اقتلوني وافعلوا بي ما يشاء هواكم. إنما الحقيقة يا إخواني إنني ضقت ذرعا بحياتي، لم أعد أتذوق طعم النوم والطمأنينة منذ انضممت إليكم...

لقد كنت أنام هادئا رغم خلو معدتي وعسر حالي، أما الآن، فعلى الرغم من وفرة المال الذي اغتصبه معكم سرا، فإنني أشعر مطلقا بلذة الراحة والطمأنينة لحظة واحدة. في الليل والنهار أظل دائما في قلق واضطراب وخوف، ويكفي مجرد تصوري أن العدالة تطاردني أينما اتجهت، أو أن الطعام الذي أتناوله ملوث بالدم والرائحة العفنة التي تفوح من القتلى الأبرياء... لا... لا... سأجعل تعويذتي دائما.. حديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) اللهم أحيني مسكينا وأمتني مسكينا واحشرني في زمرة المساكين راجيا من الله أن يغفر لي ما تقدم من ذنبي إنه غفور رحيم. كم يؤذيني

ويؤرق مضجعي تفكيري الدائم بأنني أقتات الحرام، ولا عمل لي غير الاثم...

ثم ينظر إليهم نظرة من استفاق إلى نفسه بعد غيبوبة طويلة مستطردا:

لماذا لا نفكر ياإخواني في أن نعمل عملا شريفا.

وهنا يقاطعه أحدهم...

ومن هؤلاء الذين نعمل معهم ياصاحبي؟... الذين حرمونا القوت ليودعوا ثمنه خزائنهم؟...

ويعقب غيره،

مع من لا يعملون بدستور الشريعة ولا يفهمون لغة لعدالة السماء؟ فيجب إذن أن نعاملهم باللغة التي يفهمونها. لغة الاغتصاب.

ويعقب غيره...

صحيح... أن كل غني لو عنى بدفع زكاة ماله لما بلغ حال الفقر هذا المبلغ الشنيع.

ويرد عليه آخر:

وهذا لا يفهمونه أيضا، فكثيرا ما نادى المصلحون بأن تجبى الزكاة وتستغل لتشغيل المتعطل.

وقاطعه ثالث منهم –

هب أنك كنت مشرعا فماذا تصنع؟

فأجابه:

أعلم الفقراء أولا حب التعاون وحب العمل، وأوفر لهم فرص الحياة الشريفة.

ويضحك الجميع مرددين…

ليتك يا أخي مشرعا

ويعقب أحدهم

لقد نسينا الشيخ فلنعد إليه… هيا نرى ما وراءه…

واقترب رئيسهم من الثائر قائلا في رفق ودهاء…

أتظن أننا نأبى الحلال؟… أبدا والله… الأمر يحتاج لروية وتفكير لكي نعمل عملا شريفا، ولنفكر في ذلك في فرصة أخرى، وتعال الآن نفكر فيما يجب أن يكون لنكشف أمر هذا الرجل.

وأيقن الثائر أنه من المستحيل أن يتخلى عنهم بهذه السهولة والسرعة، فتكلف الموافقة بدوره ريثما تحين فرصة الانسحاب.

وفي اليوم التالي جاءوا فرادى، وتفرقوا في المنطقة يبحثون عن مقر الناسك الذي لم تظهر معالمه في المساء الفائت في الوقت الذي كان الناسك يسير في طريق موحش حتى بلغ منزلا طرق بابه بطرف عصاه في حذر، وبعد أن فتح الباب أطلت منه امرأة قروية لم تظهر غير رأسها وقد أرخت خمارها لتخفي وجهها عدا عينيها، فلما رأت الناسك اختفت بسرعة دون أن تتكلم، وبعد لحظة خرج ولدها الصغير يحمل إناء مملوءا باللبن فتناوله الناسك منه، ووضع في يده قطعة فضية ثم قبله على جبينه قبلة أبوية، وانصرف دون كلام إلى محرابه، وقبل أن يدخل المحراب جني بعض الثمر من النخلتين اللتين تعانقان كوخه، أما القروية فقد تناولت النقود من ولدها في غبطة واضحة وأخفتها في خزانة ملابسها وقد شاع البشر على وجهها.

وعلى غير ميعاد حضر زوجها إذ كان على سفر، ولم تدرك المسكينة لبساطتها الشر البادي على وجهه، إذ كان يغالبه ببسمة صفراء مفتعلة. أو لعلها كانت مشغولة الفكر بنقودها التي عولت على أن تشتري بها نعجة صغيرة تدر عليها خيرا وفيرا بعد حين... على أنها لم تكد تشعر بزوجها حتى أقبلت عليه هاشة باشة تطوقه بذراعيها في حنان وفرح قائلة:

سنصبح قريبا من الأغنياء إن شاء الله...

ووضعت بين يديه كيس النقود التي جمعتها أثناء تغيبه، ومالت عليه في دل وخفر مترقبه أن يضمها ويقبلها شكرا لها على هذا التوفير، ولكنه ابتسم في خبث متعمدا أن يشغل نفسه بعد النقود ليخفي الشك الذي راوده... وبعد أن انتهى من عدها التفت اليها متسائلا.

ومن أين لك هذه النقود؟

فأجابته دون تلعثم:

ثمن اللبن الذي ابتاعه مني رجل طيب كريم يبدو أنه ولي من أولياء الله الصالحين... إنه يدفع ثمن اللبن ريالا كل يوم...

فاغتصب بسمة ليستدرجها وقال معقبا:

حقا إنه رجل كريم وأي كريم... فما سبب هذا السخاء يا ترى؟

ثم ضحك مستطردا:

في الأمر سر ولا شك.

ونظرت إلى عينيه المحمرتين فلم ترتعد ولم تخف ولم تفقه ما يعنيه لأن الأمر في حسبانها بسيطا. وعاد يقول:

قولي الحق ما سبب سخاء الرجل؟

فردت عليه ببراءتها المألوفة:

إنه رجل طيب...

فازداد حنقه وبدأ يهتاج قائلا:

أي رجل هذا الذي يبتاع كوب اللبن بعشرين قرشا. لا أظنه معتوها أو مجنونا إذ لو كان كذلك لهشم رأسي أو رأس الصغير أو رأسك في ساعة جنون... ولكنه لم يفعل... إذن فهو عاقل مفتون: يحبوك بهذا السخاء لفرط غرامه المكنون بك...

فقاطعته في حدة:

من أجلي أنا؟ معاذ الله، إنه لم يدخل البيت مطلقا ولم يكلمني قط... سل الجيران. إنه يتناول اللبن من الصغير وينقده الثمن وينصرف.

وقاطعها في ثورة...

وكيف عرف أن عندك لبنا للبيع؟

فقالت بلهجة اليقين:

عله عرف من سكان الحي، أو لعله عرف من حادث موت الجاموسة وقد أرسل إليك ولدك في حينها يوم ماتت في الطريق عندما وقع على رأسها حجر من منزل صغير أمر الباشا بهدمه بدعوى أنه قديم البناء والناس تقول إنه أراد أن يزيد حديقته اتساعا لتسع موائد حفلات زوجه وابنته.

وتعاودها الذكرى الأليمة فتبكي وهي تقول:

وقع الحجر على رأسها فماتت في التو. ولا أكتمك إنني صعقت واندفعت كالمجنونة داخل القصر أبكي وأصرخ وأستغيث لعل الباشا يرحمني ويعوضني كما كان يأمل الناس الذين التفوا حول الجاموسة يتألمون ويطلبون منه الرحمة ولكنه أمر الخادم بطردي دون رحمة، ولما حاولت اللحاق به وقت خروجه لأشكو له ما حل بنا من بلاء وفقر نهرني قائلا: كان يجب أن تنتبهي إلى الهدم وتسيري بجاموستك بعيدا. وتركني كسيرة القلب حزينة مهمومة لبعدك عنا وما حل بنا، وبينما نحن عائدون إلى بيتنا نبكي لما أصابنا استوقفنا هذا الشيخ وسأل ولدي عما حدث فقص عليه كارثتنا. فرثى لحالنا وأعطى ولدي بعض قطع فضية وتركنا بعد أن قال... اذهبي إلى دارك يا ابنتي آمنة، فإن الله الذي خلقكم لن يغفل عنكم وهو أرحم الراحمين. وفي الصباح طرق بابنا، ولما خرج ولدي إليه سلمه هذه النعجة لنستعين بها على العيش ريثما تعود واشترط أن يأخذ يوميا كوبا من اللبن مقابل الثمن الذي يدفعه. وأصارحك إنني رفضت، ولكن ابنك عندما استشار أخيك نصحني بقبولها، وأفهمني أن الشيخ ولي من أولياء الله. ولقد رآه بنفسه عدة مرات يصلي ويسبح الله.

فقاطعها وهو يغمز بعينيه في مكر ودهاء،

وما دام حسن النية لماذا لم يتحدث إلي عندما رآني قبل انصرافه وأنا أجتاز عتبة الدار.

فقالت:

لأنه لم يتعود أن يخاطب أحدا غير الصغير.

فقال متخابثا:

ولماذا لا تجزيه خيرا؟ أما كان يجدر بك دعوته لتناول كوب من الشاي على الأقل؟

فقالت في بساطة...

الله وحده القادر على أن يثيبه خيرا... وهو كما علمت يفعل الخير في سبيل الله دون أن ينتظر جزاء إنسان...

ثم تتبسط في الحديث مردفة:

لقد علمت من جارتنا شوقية أنه يحسن كثيرا في الخفاء...

ولم يكد الزوج يسمع اسم جارتها شوقية حتى جن جنونه وصرخ...

إذن شوقية تعرفه أيضا... أنا أعرف شوقية جيدا... إنها امرأة...

وهنا قاطعته صارخة...

اسكت... إن لك ابنة... حرام عليك... إنها طاهرة... صحيح جريئة... لكنها عفة...

وملكته غيرته الجنونية فعاد يصرخ:

أتظنينني أبلها... لا يمكن أن يكون ملاكا... لقد خنتني في غيبتي... إنه عاشق وكان اليوم على موعد معك كالمعتاد فلما رآني تغافل وارتد.

كان من الطبيعي أن تفزع المرأة لهذا الاتهام، وتدافع عن نفسها وعن الناسك باللين آنا والحدة أحيانا، ولكنه لم يرتدع بل فسر دفاعها بالحرص على استبقاء علاقتها بالناسك، فتركها وقد انتابه مس من جنون، وتحول عنها ليخرج ملوحا بسكين حاد، مرددا بصوت الهائج المخبول: سأنتقم لشرفي حالا... ولم يكن في مقدورها غير الحيلولة بينه وبين الخروج ممسكة بيده صارخة في توسل: إنه بريء... أتقابل إحسانه بالإساءة؟... ويلك من ربك... وزاده الدفاع عن الناسك هياجا، فانقض عليها في جنون، وقبض على عنقها في غير وعي وهو يصرخ: أنت تحبينه يا فاجرة وتخافين عليه... ولم يدعها إلا بعد أن ظن أن روحها قد فاضت لانقطاع أنفاسها، وقبل أن يغادرها لمحته من وراء جفونها يشحذ السكين وهو يكز على شفتيه في غيظ عميق وأيقنت أنه سيقدم على قتل الناسك حتما... فاستجمعت قواها واستحالت متنمرة، وانقضت عليه لتأخذ منه السكين وقد اعتزمت أن تحول بينه وبين قتل الناسك مهما كان الثمن حتى ولو ذهب هو ضحيته أو ذهبت هي. وقام بينهما عراك عنيف وترامى صراخها إلى الجيران فهرولوا إليها وفي مقدمتهم شقيقها الذي أسرع بالقبض على يده، وكان يوشك أن يطعنها في عنقها ولم يكد يقصيه عنها حتى قام بينهما عراك عنيف انتهى بجرح الشقيق وإصابة الزوج في رأسه إصابة بالغة. وتناقل الناس خبر ما جرى في شيء من المبالغة وكثير من التغيير، وقيل فيما قيل أن زوجها ضبطها مع رجل غريب... وقال بعضهم، وكان أكثر

إنصافا، إنها لم تشأ أن تعاشره لأنه هارب من العدالة، وهي تخشى أن يعود إلى مزاولة الاتجار بالمخدرات.

وقيل للناسك عندما حضر كعادته لتناول كوب اللبن ووجد بيت القروية مغلقا إذ أخذتها زوج شقيقها لتعالج ما أصابها من رضوض وكدمات... خلاصة ما جرى مع التلميح عن علاقته بالزوجة ليروا مبلغ تأثره بالحادث وماذا هو فاعل.

ولزم الناسك الصمت مستغفرا الله للزوج ولكل من يسيء الظن بالزوجة البريئة... وقال لمحدثه...

أعدى عدو للإنسان هو الشك المثير. غفر الله للزوج وعافاه مما ابتلاه... فلو لم يكن الله غفورا رحيما لما دخل الإنسان قط الجنة. وفي مقدور الله أن يجعل من الشيطان بخورا يحرقه تحت أقدام الخاطئين، ولكنه شاء لحكمة إلهية أن يجعل من تاريخ الإنسان سلسلة أقاصيص متصلة الحلقات ليظل العالم يسير في طريقه المرسوم له منذ الأزل...

وارتاح المتحدث الماكر إلى منطق الناسك... فلازمه في الطريق أثناء عودته ليحظى بنصيب أوفر من حديثه الذي بدأ يشعر أنه كالبلسم الشافي... وقال له ليستزيد من حديثه...

في الواقع هذه الزوجة مظلومة ومسكينة لأن زوجها شرير لا أخلاق له وهي على عكسه تماما... طيبة طاهرة.

فقال الناسك...

لا عجب في هذا فالمخلوقات كالمعادن تختلف باختلاف جوهر الأرواح. فبعضها خير وبعضها شرير، ويصل بعضها ببعض حلقات قد تنتهي بالخير وقد تنتهي بالشر، أو تتعاقب الحلقات ما بين الخير والشر تحت تأثير تيارات جارفة خارجة عن إرادة الإنسان فهو مزيج قد يكون واضح الأثر وقد لا يكون... هو مزيج من الفضيلة والرذيلة تختلف معايير كل منهما في نفس كل إنسان. فالفضيلة عندك مثلا أوفر مني والرذيلة عندي أكثر منك...

فقاطعه الرجل...

معاذ الله... معاذ الله... أنت معصوم بفضل ربي يا أبي...

فابتسم الناسك وكأنه أدرك ما يجول بذهن الرجل منذ سار معه...

المهم يا ولدي أن في التمازج أو التناكر حكمة إلهية قد يكون من الخير لصاحبها وللإنسانية أو لا يكون. وقد يكون الخير من قبل نفسه أو من قبل غيره والله المتصرف فيما يريد وما لا يريد... والإنسان له طاقة خاصة من الخير ومن الشر قد يزيد أحد الجانبين على الآخر وقد يتوازنا في العمل والإنتاج.

وهنا كان لابد للرجل أن يعود من حيث أتى، فاستأذن الناسك شاكرا له رحابة صدره. وعاد الناسك إلى كوخه وهو يفكر في القوة الخفية التي تدنيه من الناس في الوقت الذي هرب فيه من الناس سعيد بالاستغراق في التفكير الإلهي والتسبيح الدائم... وبينما كان في استغراقه الروحي إذ سمع طرقا خفيفا على باب كوخه، ولما هرع

إلى الخارج ليرى من الطارق عله يكون طالب حاجة كما تعود ولكنه رأى المرأة ذات السحر الفاتن والحسن الوفير الخلابة النظرات الحلوة البسمات التي قابلها منذ حين في الطريق فبهت لمرآها ونظر إليها مشدوها لا يقوى على النطق. ولم تدعه الغانية فريسة للمباغتة إذ أسرعت قائلة، بصوت منغم عذب متقطع الأنفاس وبلهجة منهوكة القوى من جراء جهد إعياء هويل:

هل أجد عندكم مأوى حتى الصباح.

ثم بكت مغمغمة:

إن رياح الصحراء تحمل إلي من المخاوف ما يبعث الرعدة في صدري، يخيل إلي أن وحشا يتبعني ليفتك بي...

ولم يدعها تتم كلامها، بل أشار إليها بيده وهو يفسح لها الطريق داخل كوخه شاعرا بأن ردها خائبة قد يعرضها لإيذاء قطاع الطرق. وقال بصوت هادئ مستجمعا قواه:

ادخلي يا ابنتي في حراسة الله.

ووقف هو على باب كوخه يسائل نفسه هل كان في مقدوره أن يفعل غير ذلك؟ فلم يجد جوابا غير ما فعل... وعاد يسائل نفسه: وهل من دستور التقوى والصلاح الحيلولة بين المرأة وحمايتها؟ أليس من فروض الإيمان حماية المرأة إذا طلبت العون والحماية؟ إذن لا غبار عليه... ولا بد من حمايتها... وشغل عنها بالتسبيح والاستغفار. ولو التفت إليها عند دخولها لرآها وهي تمايل في مشيتها كأن الأعاصير

تناوئها. فلما استقرت وهدأت أنفاسها المذعورة كأنها كانت تجري حقا لتهرب من مطاردة شرير أو مشاكس راحت ترقبه من وراء جفونها. فلما رأت نظره يقع عليها تنفست الصعداء وابتسمت ابتسامة الطمأنينة، ولاح على وجهها بشر أشاع في عينيها نورا رسم على شفتيها بسمة ساحرة، وإذا بها تبدو امرأة نادرة الجمال ساحرة إلى أقصى حد كأنها خلقت فتنة للقلوب والأبصار، واغتاظت عندما استرد نظره وظل واقفا على عتبة كوخه، ولعله كان يفكر هل يدخل - أم يظل قابعا كالكلب على الباب لحراستها··· وعاد ينظر إليها في حذر ليراها هل غلبها النعاس أم زالت مستيقظة··· فالتقى البصران، وخيل للمرأة أنه غاب في عينيها وخيل إليه أنها غابت في عينيه شاعرا أن الدم ارتفع حارا ملتهبا في رأسه، فاستعاذ كأن شيطانا رجيما يجذبه إليها، وراح يتمتم على تسبحته، ثم رد بصره عنها بعيدا ليستجمع زهده واستعلاءه عن مغريات المرأة وغمغم ببطء وصوت خفيض···

معذرة يا ابنتي - هذا فراش ناسك زاهد.

ونظرت إليه المرأة نظرة يكفي إغراؤها وسحرها للهبوط به من برجه النوراني إلى حيث تجلس. فدنا ثم أحجم فاستعاذ بالله. ولكن المرأة أدركت ما يجول بنفسه بحاستها النسوية الخفية فعادت تنظر إليه في استحياء معتدلة في جلستها وقد لفت جسمها بردائها في تعفف كأنها تقول له··· لا تخف اقترب. ثم أشارت له بيدها البضة كي يقترب منها. ودون تردد جلس قريبا منها وقد غاب عقله في ذهول إحساسه فبدا كالتمثال الصامت، وطال الصمت حتى ضجرت المرأة، فتكلمت وكأن الدنيا بما فيها من فتنة وعذوبة ورقة تتكلم:

عفوا يا أبتاه... لقد أزعجتك وأقلقت راحتك... أما فراش الزاهد هذا فهو أحب إلي من الدمقس والحرير.

وراحت تتحسس القش من تحتها وحواليها... كأنها تتلمس فراشا وثيرا غاليا، ثم استلقت على ظهرها في حركة ظاهرها الحياء وباطنها الإغراء الفاتن، محاولة إثارة حسه بفن إغرائها الساحر. وقام في التو صراع روحي بين روحها التي تحاول جهدها تنبيه أحاسيسه لأمر لا يعلمه إلا الله. وبين روحه التي تغالب الإغراء بغض الطرف عنه والاستعاذة بالله والتمسك بإيمانه العميق. ولكن المرأة مغرية عريقة في الإغراء... لذلك صعب على الناسك، بعد المكابرة، أن يحبس نظراته ويصد إغرائها فلم يلبث حتى غلبه شيطانها... فإذا به ينظر إليها شاعرا بأن الدم يجري حارا في شرايينه، ويوشك أن يبلغ رأسه، فخاف وارتعد وانتفض كأنه أصيب بحمى طارئة وهم بالخروج هاربا منها كأنها عقرب يحاول لدغه، وكانت تراقبه خفية فاستوقفته قبل أن يغادرها قائلة بصوت يشبه الهمس النوم:

إلى أين يا أبتاه؟

فقال في رصانة:

سأتركك يا ابنتي لتأخذي راحتك... إنني على موعد مع نجمة الزهرة.

وابتسمت المرأة في خبث قائلة...

لا أعرف نجمة من نجوم السينما بهذا الاسم.

فابتسم وقال مشيرا إلى السماء:

أعني هذه. إذا ظهرت في السماء أصلي صلاة ما فاتني لله فيما مضى من أيام صباي...

وتحول عنها ليخرج، فهرعت إليه متكلفة الهلع، مغمغمة بصوت حنون منوع الجرس...

أتتركني وحدي يا أبي... إنني أخاف، فقد يدخل علي وحش يفترسني. أتكره البقاء بجانبي يا أبتاه؟... أتراني بغيضة إلى هذا الحد؟...

ووضعت يدها على كتفه في رجاء واسترحام مردفة...

إنني أتبرك بأنفاسك فلماذا تحرمني من عطر الجنة يا أبي... انظر إلي... إني ألمح في عينيك نور السماء... فأود لو تحولت إلى ومضة من ومضات نظراتك الصافية. أبي لا تتركني بحق الله...

هنا تخاذل الناسك أمام صوتها العذب الرائق وحنانها الدافق الوفير، وكأن جاذبيتها شدته من أم رأسه فهوى تحت إرادتها وقال دون تردد...

سأمكث يا ابنتي فنامي... نامي في رعاية الله.

وعادت إلى الفراش مستلقية عليه، محاولة أن تظهر محاسن جسمها فنسي الناسك ورعه وتقواه وجلس بقربها يسألها...

أصدقيني كيف عرفت مكاني؟

قالت...

اعتمدت على إحساس أجوس خلال المكان الذي لقيتك فيه حتى بلغت هنا بعد أن ولى النهار وطواني الليل، ولعلي لم أزعجك لأني طرقت بابك...

قال:

وما الذي حدا بك إلى ذلك.

قالت:

لأطمئنك على الشاب الذي كلفتني بالسعي للإفراج عنه ولم أغادر الباشا إلا بعد أن اتصل بجهة الاختصاص أمامي، واطمأن قلبي عندما وجدت الشاب في الصباح عند خروجي من القصر ينتظر خروج الباشا ليشكره. وقد عرف الشاب من الحارس صلتي بالباشا... لأنه لحق بي في الطريق، وتوسل إلي أن أساعده بمطالبة الباشا كي يلحقه بأي عمل...

وتسكت المرأة لحظة كأنها تسترد خواطر غابت عنها ثم تستأنف حديثها،

ولا أكتمك يا أبي أن بي رغبة ملحة لخدمة هذا الشاب، إذ أشعر نحوه بعطف عميق كأنه ابني...

ثم تغالب دموعها...

لو عاش ابني لكان في مثل سنه... بل أتصوره كأنه هو... ملامحه... صوته... كل شيء فيه يخيل إلي أنه صورة مماثلة لولدي... آه لو كنت أعرف أن ولدي حيا... لقلت إنه هو،

وهنا قاطعها الناسك:

وقد يحتمل أن يكون هو، من يدر أن الأقدار تلعب في الحياة أدوارا وفق ظنون البشر. أو لم تسأليه عن اسمه واسم أبيه وأمه؟ لو فعلت لاسترحت بدل أن تتلاعب بك هاته الهواجس.

قالت:

ليتني سألت... لقد أنساني موقفه الأليم التفكير في هذا...

ونظرت إليه نظرة حيرة وارتباك متأثرة بانفعالها الخفي الذي يستغل حسها... أتصارحه بما تخفيه أو لا تصارحه... وأكسبها هذا الشعور الحائر صفة الخضوع والمسكنة... فتحركت مشاعر الناسك بدوره وأراد أن يقول لها شيئا. ولم تكد شفتاه تتحركان حتى مر الله بخاطره، فخاف وارتجف واصطكت أسنانه كأن قشعريرة من البرد هزته فابتعد عنها وقد دمعت عيناه ليخفف ما ألم به من إحساس طارئ...

ولمحت المرأة ملامحه تكسوها ظلال أحاسيسه وعراكه النفساني فنظرت إليه نظرة إشفاق وحنان قائلة:

كيف تراني يا أبي؟ أليس لمثلي الحق أن تكون سعيدة في هذه الحياة؟

وكان هذا السؤال كافيا لتركيز أفكاره عليها، فاتجه نحوها لينظر إليها من جديد نظرة تأمل عميق قائلا:

إنك رمز للإبداع الإلهي يا ابنتي، وليس في الوجود أجدر منك للحظوة بالسعادة... كأنك طيف حورية خرجت من الجنة لتضيف إلى النعم التي أسبغها الله على الوجود نعمة رائعة.

فابتسمت في خفر لتستزيد من افتتانه وهي تقول:

أحقا ذلك يا أبي؟... في الواقع أن روحك هي التي تضفي على الضعيف هذا السحر والجمال...

واقتربت منه لتضع رأسها فوق كتفه كأنها تركن إلى حنان أبيها محاولة أن تشعره بدفء صدرها لتأنس روحه إليها مغمغمة كأنها تخاطب نفسها،

كم أنت حنون يا أبي... لشد ما أشتهي هذا الحنان... إنه الحلم الذي استغرق فيه أبدا ولا أريد أن أستيقظ منه.

هنا نسي الناسك وجوده دون أن يدري، ونسي كل شيء في الحياة إلا هذه المرأة... نسي نفسه ونسي مسبحته فوقعت تحت قدميه فلم يرفعها من على الأرض. وبدأ وميض غريب خاطف يلمع في عيني المرأة وارتسمت على وجهها ابتسامة معينة تحمل سرا دفينا تطوف

كالظل الصامت... وبدأت تتحول من معنى إلى معنى... معنى يعيش في نفسها ومعنى خارج عن نطاقها... إن فرحة تطوف بقسماتها ليظهر بشرها كأنها كسبت ربحا هائلا... ثم لا تلبث الفرحة أن تختفي وراء إحساس مجهول ترتجف له مفاصلها إثر تأثرها بخاطر مخيف يبعث البرودة في أوصالها فتحس أنها خدعت نفسها وأنها لم تكسب شيئا بل خسرت كل شيء.

ثم يقع نظرها على الناسك فيتلاشى هذا الخاطر الأسود، ويشيع نور جديد لا عهد لها به، نور قاهر طاغ يرد الطمأنينة إلى صدرها فتهدأ ويعاودها إحساسها السعيد بأنها قادرة على امتلاك كل قلب واجتياز أفق كل روح لتكون صاحبة الشأن والسلطان... ووقعت تحت سيطرة هذه الخواطر التي شغلتها عن الناسك برهة في حين شغل هو بالتأمل في عظمة الخالق الأعظم التي تتجلى في جمالها الساحر ولم يوقظه من غفوة التأمل والاستغراق في التفكير غير صوتها وهي تقول له...

حدثني يا أبي... كيف تراني... وما الذي يطالعه حسك اللماح من وراء قضبان صدري...

قالت ذلك دون تفكير إذ تملكها شعور خوف طارئ، شعور الخوف من افتضاح أمرها والسبب الحقيقي لمجيئها... وهل تراه صدق ما قالته؟... ولم يتكلم الناسك وظل محدقا فيها فعادت تقول...

إن روحي تشعر بوحشة هائلة... ألا تؤنسها بحديثك على الأقل؟...

ولم ير الناسك غضاضة في إيناسها بالتحدث إليها فقال:

أي حديث تريدين أن أحدثك إياه يا ابنتي؟... أنا لا أعرف غير التحدث عن الله وعظمته وقدرته - تلك القدرة التي تتجلى في جمال كل شيء... وتتجسم عظيمة هائلة فيك...

وسكت لينظر في عينيها نظرة إعجاب وفراسة.

طربت المرأة لهذا الإطراء الفريد، فابتسمت بسمة رضا قائلة:

وهل في الوجود أجمل من هذا؟ هل هناك متع وألذ من الحديث عن الله؟... إن لذة الحديث عنه أشهى مذاقا من كل ما يمكن أن يحلم به متذوق للجمال ويتمناه... فحدثني يا أبي... حدثني عن الله.

وبدأ الناسك يرتاح لها فقال:

ولماذا لا تحدثيني أنت يا ابنتي؟

ونظر إليها نظرة إيناس وانتعاش روحي مستطردا،

حدثيني حديث الحياة التي تنتمي إليك أو تنتمي إليها... كلاكما صورة للوجود الحي... النابض بقلب الخلود.

وتنبهت أحاسيسه النائمة في أعمق أعماقه منذ ترك حياة الآدميين المعلقين بخيوط مشاعرهم بالأرض، ونظر إليها في نهم وما كان يستوعب فتنتها حتى أرخى جفونه وأطرق وجهه وابتعد عنها وقد

ملكته رجفة كأن عصا من النار لفحته وتمتم... لا... لا ووضع وجهه بين يديه ليخفي دموعه ويقاوم انفعاله الداخلي.

وأدركت بفطرتها النسوية مبعث انفعاله، فعطفت عليه عطفا كبيرا واقتربت منه حانية، وقد أحست بشعور لم يمسها من قبل... شعور فيه عنف، وفيه قوة ولطف وحنان... شعور طرق وجدانها في التو جديدا... فطهر خواطرها من السوء، وأخرج روحها من محبس نزعات الشيطان فباتت شفافة ظاهرة، ونسيت كل ما كانت تخفيه في نفسها من رغبات وآمال، ومالت عليه حانية مرددة... أبي، بل سيدي يقين أنها تقبض على رأس ولي فخشعت وصفت نفسها وتطهرت من الإثم والاتجاه نحو السوء.

خفق قلبها لأول مرة في حياتها خفقة قوية أيقظت ضميرها النائم وكأنه كان غائبا ثم عاد فعاد معه وقار الأنثى العفة الشريفة، وتلاشى استهتار الأنثى الضالة، وعادت تقول بصوت هادئ محتشم تنم نبراته عن الصدق واليقين والحب الأكيد:

سيدي مولاي... أتقبلني خادمة لك أعيش معك؟...

وكأنها صوبت إلى صدره سهما أنطق وجدانه فقال في تحسر ومرارة:

لقد خلقت يا ابنتي لتكوني سيدة لا خادمة،

وسكت ليخفي حزنه وهلعه، ثم استطرد:

إنك امرأة ككل النساء يحمل كأسك المغري السم الزعاف.

وأدركت ما يجول في رأسه، وظننته أدرك مرماها فركعت عند قدميه، ووضعت رأسها في حنان فوق ركبتيه، وقالت بصوت تنم نبراته عن الصدق الأكيد:

لا... لا لن يكون في كأسي غير الترياق. اطمئن. قرب نظرة واحدة تطهر النفس كأنها شعاع من إشعاعات النور الإلهي تغسل الإثم وتمحوه فيغدو طاهرا... ورب كلمة عفة صادقة تخلق من الفضيلة ما يعجز عن خلقه كبار المربين وأقوى الوعاظ المرشدين. أعاهدك يا سيدي أن أكون طاهرة كالطهر، نقية كالنقاء، صادقة كالصدق... صدقني...

ودمعت عيناها، فاشتم من أنفاسها رائحة الصدق. ولما مد يده ليجفف دموعها لمس حرارة اليقين... فصدق وأدرك أن عواطفها لا يشوبها كذب أو التواء... واندفع يقبض على يدها في حرارة كأنه يتبرك بيد قديسة وقال:

لا أظنني مخدوعا

ومر بأصابعه في رفق على يدها كأنه يتحسسها ليتأكد من أنها حقيقة لا خيال. ثم استطرد في الحديث:

إنك حقيقة... حقيقة ثابتة... بروحك وكيانك... وحقيقة ثابتة بإيمانك...

ثم أطرق مناجيا نفسه:

لم جئت يا ابنتي: ولم فتحت لي باب الحياة من جديد، لقد كنت غلقته من زمن بعيد:

ونظر إليها بمعنى تكلمي، فلم تتكلم، وأسندت رأسها الذي يحمل في تلافيفه خواطر بعضها مر بذهنه وبعضها يجهله... على أنها رغم ذلك غابت في دنياه حقا، وذابت مشاعرها في عالم روحه، ولم تعد تشتم من هذا العالم غير رائحة أنفاس عفة لا تحمل من الخبث والدهاء والكذب أي أثر.

وبعد صمت قصير في مدته، طويل في عمقه، حيث غاب كل منهما في رحلته الروحية الممتعة، التفتت إليه لتسأله، في رقة وحنان:

لم أغلقت باب دنيا الحياة يا سيدي وما زلت تحمل من الرجولة قوتها ومن الشباب وسامته؟

قال...

إذا استطعت أن تفهمي ما قاله سليمان «كل شيء باطل إلا قبض الريح» فهمت أيضا لماذا طلقت الحياة دون رجعة.

قالت:

أعتقد أن سليمان قال حكمته لأمر يوائم زمنه وعصره والله خلق العصور وجعل لكل عصر حاجاته والتزاماته. فمثلا كانت وسائل النقل فيما مضى هي المراكب في البحار والجمال في الصحراء وأصبحت اليوم الطائرات. وكما يقولون

إنهم يحاولون اختراع ما يفوق الصوت في سرعته... فأنت مخطئ يا سيدي إذا زعمت الخير في العزلة بعيدا عن الحياة لاعتقادك أن كل شيء باطل. ولماذا لا تجمع بين الدنيا والدين كما قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا؟ هذه هي فلسفة الحياة وواجب الأحياء... أتنكر أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان يعلم يقينا بأن كل شيء في الحياة باطل زائف ولكن لابد من العمل لتستقيم الحياة وتحلو وتطيب حفظا لسنة التطور.

وهنا قاطعها، وهو يربت على خدها في رفق وإعجاب:

يا بنتي الفيلسوفة لا تنسي أن مشيئة الله أيضا هي التي تسير المجاهدين وتقعد بالزاهدين... ألا يصح أن يكون للمتقاعدين الذين يتراءون لك كسالى خاملين أعمال عظيمة هائلة؟ ولكن في مظهر آخر غير ما تعارف عليه الناس من مظاهر. أفهم أن تكون حياة الإنسان التي يقضيها في الدنيا عملا ونضالا في وضوح أو غير وضوح، وبأسلوب معروف وغير معروف والمهم أيضا أن يكون للإنسان رسالة سليمة نافعة، وقياس تقديرها للخالق لا للمخلوق. فقد يصح أن أعمل عملا يبدو للناس شريفا عظيما وهو في الواقع دنس لأن أهدافه ضارة فالحكم إذن لله وحده.

فقاطعته...

طبعا هذا يرجع لاستعداد المخلوق وهدفه في الحياة...

قال:

أبدا، نخطئ إذا قطعنا بذلك. فكم من موهوب عاش تعسا لأنه لم يجد سبيلا لإبراز مواهبه. بل قولي إن طبيعة الإنسان الأصيلة تنتهي به كما بدت به. ولا صلة للحوادث التي تقع منه فهناك أقدار باطنة لا تدرك، لكنها تدفعنا لعمل ما يجب وما لا يجب. وأقدار ظاهرة تتمشى مع قوة أو ضعف عقولنا ومشاعرنا ولنا قوة السلطان عليها وهي ما تعارف الناس على تسميتها باسم مقتضيات الأحوال. فمثلا إذا فرض وولد إنسان من أبوين كريمين، وكان الشرف والكرم أبرز صفات تكوينه... ثم دفعته الظروف القاسية إلى الاستهتار مثلا واقتراف أي إثم أو جريمة... ثقي بأن فضائله الكامنة تظل في حرب دائم مع رذائله المكتسبة، ولا بد من انتصار فضائله الأصيلة بعد أمد قصير أو طويل... قد يكون في منتصف شوط حياته، وقد يكون قبيل النهاية، وقد يكون عند نهاية المطاف... هي معركة دائرة بين الخير والشر تنتهي بانتصار الأصل الكامن فيه. إذا عرفت ذلك لا تتعبي نفسك في تعرف خفايا الناس، لأنه لا يمكن لكائن مهما أوتي من الذكاء والخبرة أن يعرف حقيقة إنسان ما بقدر ما وضح من سلوكه.

وسكت ليتنفس الصعداء وهو يهز رأسه كأنه يبعد عن ذهنه خواطر غير مريحة. وانتهزت فرصة سكوته فقالت:

أتسمح لي أن أسألك... لماذا اخترت هذا القفر الموحش سكنا ومقاما؟... ولماذا آثرت العزلة كأن بينك وبين العراء ألفة وغراما؟

فنظر إليها نظرة الفاحص المحقق قائلا:

أخشى أن تكوني موفدة من قبل الشيطان لتعيديني إلى دنيا الضلال.

فابتسمت لتخفف من سوء ظنه... وقالت:

وهل أنت ضعيف إلى هذا الحد؟ أتخاف؟ إن من يعرض حياته لحيوانات الصحراء الضارية واللصوص المبعثرين كالجراد لا أظنه يخاف مني أو على الأصح يتأثر بي.

قال، وهو يهز رأسه كأن الشك يراوده:

كان يجب أن تفهمي من كلامي أنني أسير في طريق الآخرة، وقد خلعت ثوب الدنيا الباطلة بعد أن لعبت الدور المقدر علي. وأخيرا بعت نفسي لله بعد أن اشتريت إيماني بما كنت أملك.

فقاطعته...

أراك ترتاب في؟ وأحب أن أؤكد لك أن الله أرسلني إليك على الصورة التي تريدها خادمة أو أختا أو زوجة...

قال في هدوء:

يا ابنتي إن إيماني بحقيقة المرأة لا يتغير... إنها كالدنيا تعانقنا لتشعرنا بجمال الحياة ولذة النعيم... ثم لا تلبث أن تحول الدنيا إلى نار نستعذب دفء لهبها ولا ندري أن فيه الاحتراق.

فقاطعته متحدية...

إنك تكره المرأة في إسراف وظلم وتكره معها الحقيقة أيضا، فإذا قلت لك إن الرجال شياطين، فهل أنت شيطان؟... انظر... انظر إلي جيدا... انظر في عيني... أترى فيهما غير إشراق الصدق واليقين؟ أتسمع في كلماتي غير رنين الإيمان الأكيد؟ إني أرجو ملحة في الرجاء أن تطمئن إلي، ويعلم الله أنني منذ سالت دموعك على يدي وأنت تبكي... قد تحولت بخواطري ومشاعري وباطني وظاهري... من امرأة مادة زائلة إلى امرأة روح باقية... صدقني إني أشعر أنني لم أعد المرأة التي كانت الدنيا تستهوي كل جارحة فيها، ولم يعد يغويني غير النور الذي يوصلني إلى مرضاة الله - وأنت بلا ريب خير من يعرف الطريق الموصل إلى مرضاته... إذ لا يمكن أن أجد قلبا طاهرا كقلبك.

هنا أحس الناسك بصدق ايمانها، وخيل اليه أن حرارة هذا الايمان قد أحالتها إلى شعاع تألق في التو فأضفى على وجدانه نورا ارتسم على كل شيء حوله وفوقه، فسكت مأخوذا بمشاعره، وسكتت معه...

وطال سكوتهما إذ طاب للناسك أن يسبح الله ويستغفره. وحلا للمرأة أن تكرر تسابيحه واستغفاره. وكأن كل شيء في الدنيا من حولهما راح بدوره يسبح ويستغفر. فالرياح في عصفها اللاغ تترامي الى مسمعيهما تسبيح واستغفار يشتد آنا لينبه قلوب الغافلين الآثمين ويهدأ أحيانا ليترفق بقلوب المؤمنين الآمنين. وللنخيل المبعثر على الرمال كأنه كلمات بارزة كتبتها يد الرحمن فاستقام عوده ليثبت للناس وجوده في اثناءة سعفه تسبيح واستغفار، والرمال النائمة حين تخطو عليها النسمات الحانية تسبح للخالق بعدد ذراتها مستغفرة لآثام البشرية الفانية.

وعادت المرأة تسأله... لم تقل لي لماذا اتخذت هنا مقاما؟ فقطع همهمة تسابيحه والتفت اليها قائلا: لقد آثرت يا ابنتي أن أعيش هنا في هذا الخلاء المطلق لأعرف منه حقائق الوجود. ان التأمل في كل مظهر من مظاهر هذه الطبيعة يكفي لتزويد النفس بما تعجز عنه مجلدات الفلاسفة. لأن الطبيعة هنا كما ترين... عارية... صافية لم تمسها يد الضلال الموبوء، ولم تشوهها أباطيل المدنية التي غرس بذورها أبناء السوء، وسكت ليحمد الله ويسبحه بينما اتجهت المرأة اليه بعد أن استردت بصرها من التأمل في صفحة السماء اللازوردية الصافية وقد اضفى الصفاء على روحها صفاء أكسبها رغبة ملحة في ترضية الله فقالت: حقا لا يوجد هنا حجاب بين الله والقلوب... كأن الله متصل بقلبك و قلبي و قلب كل من يمكث هنا - مباشرة - صدقني أشعر أن الله معي منذ ولجت هذا المكان. في أعماقي وفي كل شيء يحوطني... ونظرت اليه نظرة عميقة قائلة: الآن فقط أدركت أنك على حق في ايثارك هذا المكان البعيد عن الافك والضلال و

كل ما ينتمي للشر والفساد بصلة. هناك قل من يشعر بوجود الله بالعمق الذي يصل بينك وبينه... أن الله هنا ظاهر واضح كأنه ينظر ويتكلم في وضوح وجلاء بأسلوب فوق مدار كنا، ولكننا نتفهمه بمشاعرنا، فنحس به ملء كل جانحة فينا... وهذا الاحساس وحده كاف لأن نعيش معه بعيدا عن الإثم والدنس لأننا نرى الله أينما كنا واتجهنا.

قال:

أحمد الله الذي هداك وعرفت من تلقاء نفسك لماذا اتخذت هذا القفر مسكنا... انه في المظهر قفر ولكنه في الواقع روض...

قالت:

وإذا كان سر نسكك وزهدك في هذا المكان... فهل سكان هذا الوادي على طرازك؟

قال:

إذا كان هذا الحلو سياج يحمي النفس من الشرور فهناك نفوس تتخذ منه وكرا لشرورها... اذ لا مكان للخير أو الشر... ولكن الانسان هو الذي يضفي على المكان نور روحه أو ظلام نفسه... وهناك أرواح تتكشف ما وراء الأمكنة من أسرار، كما أن هناك نفوس تمر بهذه الأمكنة دون أن تفقه أي مظهر من مظاهرها في الليل أو النهار...

وسكت ليتأمل النور الذي بدأ يزداد اشعاعه على قسمات وجهها فازداد فتنة وجلالا... بينما راحت تقول وقد سبقت عيناها لسانها ببريقها الروحي... حقا أن الله حليم... اني اسمعه... اقسم به لك أن عطرا قدسيا سماويا يملأ جنبات نفسي فكأن أبواب السماء تفتحت الساعة لتريني ما وراء الخلود... ألا تراني بربك كالمسحورة... بل أشعر فعلا أنني مسحورة بتأثير هذا السحر والجلال... ولكنني عاجزة. عن تصويره... ليتني أستطيع لأنقل اليك صورة ما أراه لتسعد بهذه الرؤيا التي أسعد بها الآن، لقد نسيت وجودي فيما مضى... كيف. كنت؟... ولماذا جئت؟ لم أعد أذكر شيئا من هذا... فقط أذكر أنني أعيش الآن في حماية الله هو فوق أمي وأبي، وفوق ديني و دنياي، وفوق كل شيء يتجه اليه عقلي ووجداني... ثم أخفت وجهها بيديها لتخفي دموعها مستطردة والعبرات تسبق ألفاظها... أستغفرك ربي وأحمدك لأنك أنقذتني من الشر ومن ضعف النفس، وأحمدك على تطهري و قبولي. ثم اتجهت صوب الناسك وهي تقول بلهجة الرجاء... أبي... دعني أعيش بجوارك لنعبد الله معا.

فتنهد الناسك قائلا... تمنيت لو صح هذا... ولكنك خلقت لغير الحرمان يا ابنتي... ليس في مقدوري أن أمنحك كل ما تشتهيه نفسك وأنت امرأة لك ميولك المتطلعة إلى الرفاهية والجاه... قالت في صدق: والذي طهرني تطهيرا لا ينتمي إلى الماضي الأثيم بصلة... لم يعد لي غير العبادة والقناعة مأرب... قال في جد: قد تندمين بعد

حين. قالت: أندمت أنت؟ أعتقد أن الله إذا اصطفى انسانا أسبغ على روحه من الجمال والجلال ما يشبع قلبه وروحه فيحس بأن في نفسه حلاوة الشهد إذا اشتهاه دون أن تمتد اليه يداه.

قال:

الحرمان وعر يا ابنتي واحتماله فوق طاقتك.

قالت:

ان الايمان إذا ملأ قلب انسان أكسبه قوة تسخر بكل شيء والذي جعلك قادرا على أن تزهد و تقنع قادر على أن يجعلني زاهدة قانعة. فهز رأسه في شك ولم يتكلم. فعادت تقول:... دع الغد لله انه يفعل بنا مايشاء، وحدثني أنت عن نفسك فقد قصصت عليك قصتي يوم التقيت بك من مقر الباشا...

فابتسم قائلا... أتصدقين أنني لم أعرفك عندما طرقت بابي... فقاطعته... لقد تعمدت أن أغير مظهري لأضلل بك... ولكن ايمانك قهرني... وتضاحكت وهي تقول... أحيانا يسوقنا الضلال إلى الغباء... كيف فاتني أنه من الجائز أن أضلل بك لمجرد تبديل لون ثوبي واختلاف تصفيف شعري و تغيير لهجة كلامي... وعادت تضحك ساخرة من نفسها بينما كان يفكر فيما عساها صانعة به.

على أنه أحس بدبيب الاطمئنان من ناحيتها يسري في جنبات نفسيه فارتاح إليها وتكلم: إن كان لابد أن تعلمي شيئا عن ماضي حياتي فلا

ضير علي... ورثت عن أبي ثروة طائلة وأملاكا واسعة، ولم يحاول والدي ارغامي على التزود من العلم بالقدر الذي يحفظ رجولتي و كرامتي و ثروتي بل تر كني وشأني أعبث كما أشاء وألهو كما يحلو لي... أذهب للمدرسة إذا شئت، وأتغيب إذا دعاني للغياب داع. فلما مات والدي تركت المدرسة لغير رجعة قانعا بثروتي الكبيرة وجاهي العريض، ورحت أنفق من أموالي بدون تعقل على ملذاتي وأصدقائي محتقرا التقاليد المرعية، ساخرا بالقانون مجتازا الصعاب على متن المال، وساعدني على ذلك أن العصر كان عصر ملذات ومتع، وأن السيادة فيه للقادر على البذل وشراء الذمم والضمائر... وسكت لحظة ليتنهد في مرارة وندم ثم استطرد... استمتعت بلذائذ الحياة بقدر ما أستطيع... حتى مرضت مرضا خطيرا معديا، فتنكر لي الصحاب، ونفر مني الأصدقاء والمقربين وابتعد عني الأقارب والخلان خوفا من العدوى، ونفذ الايراد كله إذ كانت الثروة موقوفة فتعذبت وتألمت وتذوقت بسبب المرض والحرمان الصاب والعلقم... واستبدت بي الوحدة بعد ايناس الناس والأصحاب، ولازمتني الوحشة بعد ضجيج المحافل والمراقص، وأنهكني المرض بعد قوة العافية... على أن الألم والعذاب صهرا روحي في بوتقة التجربة القاسية، وبدأت أفهم الحياة على ضوء الحس المصهور الجديد، وتفتح عقلي ونضج وعيي ورأيت الحياة على حقيقتها وأيقنت أنني كنت طفلا لا يفهم من أمور الدنيا القليل ولا الكثير، وان البعد عن اخوان السوء وموبقات الباطل أعادني إلى اليقظة الواعية ففتحت بصيرتي على حقائق الحياة، فبدأت أستشفها من وراء ما يحوطني... أي والله يا ابنتى كنت ضالا، وكنت أعمى وكنت جاهلا، وكنت مغرورا وبالرغم من اهمال أبي وضع نواة الدين في قلبي... فقد عادت صورته. وهو قائم على الصلاة

لا تبرح ذهني... ورحت أستعرض تاريخ أبي و سبب اهماله لتربيتي... وغفرت له لأنه كان أميا عصاميا... عرف كيف يجمع الثروة الطائلة بمجهوده الفردي الخاص، إذ بدأ حظه يزدهر عندما بدأ يتاجر في الخردة التي اشتراها من الجيش البريطاني... وكأن الخردة كانت كنزا أدر عليه ربحا هائلا... وظن لجهله أن الثروة كافية لاسعادي و حمايتي من كل سوء فتركني وشأني... ومع أن أمي بدورها كانت سيدة صالحة مؤمنة فانها لم تستطع أن تؤثر علي بنصائحها التي كانت تلقيها علي في أسلوب المواعظ كلما رأتني... وكان من الطبيعي ألا أتأثر بأسلوب الوعظ لأنه لا يجدي مع المراهقين. على أن الشيء الذي نفعني وردني إلى الصواب... صلاح أبي و تقوى أمي... فقد كانا بحق ورعين صالحين فاضلين... لذلك كان المرض كاف لقتل جرثومة الضلال في صدري وايقاظ بذور الخير والصلاح في قلبي... فنمت البذور مع تأملي وحرماني واعتكافي الاضطراري بمناسبة مرضي.

وأخيرا فارقتني العلة بعد أن جعلت مني هيكلا هزيلا... لحكمة أرادها الله وكنت لا أدركها... ثم أدركتها... ووعيتها... وتكشفت لي حياة، بفضلها، عن خفاياها وأسرارها، وكان من الطبيعي بعد ذلك أن كره المال والملذات والناس؛ وبدأت أتجه بكليتي الى الله كأن روح أبي هالها أمري فأشفقت على روحي... ومشاعر أمي المحسنة البارة تجسمت في قلبي... ورحت أبحث عن عمل أشغل به وقتي الطويل وبدأت أطالع الصحف أنا الذي لا أطالعها الا إذا لفت نظري صورة حسناء فاتنة.

وهنا قاطعته... المهم... كيف تحولت من الاستهتار الى الزهد البالغ؟... فقال في هدوء... نبهتني صيحة الثورة الداوية وردت إلى صوابي... ورأيت البلاد تجتاز أخطر مرحلة في تاريخ حياتها منذ صار لها في الوجود كيان، وكنت أول من استجاب لدعوة الثورة لتحقيق أهدافها العليا... ولم يكد الوقف يحل ويصبح من حقي التصرف فيما تركه لي والدي رحمه الله حتى وجدتني كالغريق الذي قذفته الأمواج فجأة إلى داخل البحر... وقبل أن أستفيق من غيبوبة الإغراق في التفكير وجدت أصدقاء الماضي يسألون عني ويهرعون إلي... وبدل أن ألقاهم بالأحضان كما كنت! استقبلتهم بالامتهان والتحقير وأعرضت عنهم وأسرعت إلى وضع ثروتي تحت تصرف الأيدي الأمينة القادرة على استغلالها لمصلحة الوطن وتشغيل الأيدي العاملة التي يعوزها رأس المال... وانقاذ الوطن من حقد المتشردين الجائعين الذين دفعهم الحرمان إلى الإجرام والشرور.

ولما اتصلت بالأذكياء العصاميين العاملين الذين يعوزهم رأس المال أحسست بأن الدم الذي كاد يوشك أن يجف في عروقي لركودي واستسلامي إلى الراحة قد سرت فيه حرارة الحياة النابضة وشعرت من تلقاء نفسي بزهد في المأكل والملبس الا بالقدر الذي يسمح لي بالحياة والعمل، وشعرت بسعادة عميقة لأنني الجندي المجهول في معركة تحرير بلادي. وسكت ليتنفس في راحة وطمأنينة. فقالت: ولماذا لم تبني مسجدا أو مستشفى أو مدرسة؟ فهز رأسه مستنكرا هذا الرأي وقال... لقد كان الأغنياء في العهد الماضي يتبرعون بالمال الذي يكفي لبناء مسجد أو مستشفى، أو مدرسة لقاء رتبة أو نيشان أو تقربا للملك... وعلى أرصفة الطرقات ألوف الجائعين المشردين...

ونظر اليها في حرارة وهو يقول: من يريد الصلاة يمكنه أن يصليها في أي مكان على الأرض القفراء أو الخضراء... والراغب في التعليم يجد مدرسة أو كتابا في أي مكان والمريض يستطيع أن يستعين بصاحب قلب طيب كريم ليكون له عونا على العلاج.

فقالت:

أعتقد ياسيدي أن الهوة العميقة التي تفصل بين الغني والفقير لا يمكن أن تتلاشى لتقرب بينهما... فقال في جد: من اليسير ذلك لو عرف كل انسان واجبه نحو الله والوطن وأبناء جنسه وأنكر ذاته مؤثرا مصلحة الوطن الكبرى على مصلحة نفسه الصغرى... لو عرف... ذلك... لزالت هذه الهوة.

ان هذه الهوة مصدرها، الحقد الذي ملأ نفس الفقير المحروم والأنانية التي تملأ نفس الغني... فالتفاوت بين الغني الجشع والفقير الهلع هو سبب نكبة هذه البلاد فيما مضى أو في أي عهد تحدث فيه هذه الهوة... وحمدا لله، ثم استطرد: حمدا لله الذي بعث من لدنه أرواحا انسانية مثالية تنكر ذاتها بقدر ما كان يتعلق أسلافهم الطغاة بنفوسهم.... وحمدا لله الذي هيأ للأمة من أنار عقول أبنائها، فتفتحت نفوسهم في حماسة صادقة وايمان كبير... وسكت يدعو الله في اخلاص أن يحمي. من أنقذ البلد من براثن الاستعمار وطهرها من رجس المستعمرين... وكل من يناصر الحق والعدالة والرحمة بروح من عنده، وأن يكلل كفاح المكافحين الصادقين بالخير والتوفيق، وأن يحفظ قائد الثورة وبطلها المغوار جمال عبد الناصر من كل سوء.

وهنا ترامى اليهما صوت حركة غير عادية في الخارج لم يأبه لها الناسك إذ كان مشغولا بابتهاله، لكن المرأة تنبهت في اهتمام، وارتجف قلبها كأنها كانت تتوقع شيئا تخشاه... وفي فزع أسرعت إلى الناسك مطوقة عنقه بذراعيها متشبثة به خائفة مذعورة دامعة العينين لاهثة الانفاس مغمغمة... لا... لا... لن أخدعك... لا... لا لن أخونك ولو تطلب الأمر دمي. وفسر الناسك كلامها بالتوبة والرغبة الصادقة في التطهر والارتقاء الروحي... وخلص الناسك يديها من حول عنقه في رفق. وأطرقت خشية أن يقرأ الناسك في عينيها ما تخفيه في نفسها. وبعد أن قاومت انفعالها رفعت اليه وجهها وعلى شفتيها بسمة تطوف كتسبيحة العابد، فبدت في عين الناسك قديسة طاهرة. وقد شغله هذا المنظر فراح يفكر كيف يحفظ لها طهرها ويصون لها توبتها ويحميها من كل سوء. فمر بأطراف أصابعه على رأسها في لطف ليباركها داعيا الله أن يقبل توبتها ويحميها من كل اثم... وشعرت بأن الحركة الخارجية انقطعت فعاودها الهدوء، وتسربت إلى نفسها الطمأنينة وشاع على محياها نور الارتياح؛ وبدا في عينيها نور يقينها الثابت، فاستطردت بصوت هادئ كهديل الحمام رقة وعذوبة:
سأعيش

هنا في كنفك... حتى أموت...

وحسبي حنانك وعطفك وليس لي غيرهما مأرب... وشغل الناسك بما يراودها من نسك، وراح يفكر كيف يحفظ لها طهرها، ويصون لها توبتها ويحميها من كل سوء.

ولما أقبل المساء هيأ لها طعام العشاء، واستأذنها ليتجول جولته المسائية اليومية، وتناومت لتطمئنه... ولما أيقنت أنه غادرها وابتعد عن الكوخ خرجت مسرعة تمشي في حذر باحثة عن شيء ما. فلما سمعت أصواتا خفية عادت وتسللت لتتوارى خلف الكوخ. في هذه اللحظة دخل رجلان الكوخ يبحثان في كل محتوياته مخاطبا أحدهما الآخر... لقد رأيته وهو خارج فلما ابتعد جئت لأدعوك، وكانت هي لم تزل هنا فأين ذهبت؟... فاتهمه رفيقه بأنه أعمى، ولا بد أنها خرجت مع الناسك ولم يرها. ولم يجدا في الكوخ ما يمكن الاستيلاء عليه فخرجا نادمين على وقت ضاع بددا.

وظلت المرأة مختفية وراء الكوخ ترقب الرجلين، فلما رأتهما يغادران الكوخ عادت اليه مسرعة لتنام قبل عودة الناسك الذي حيرها خروجه كل مساء وعودته قبيل الفجر... ولما سمعت وقع أقدام تناومت ومن وراء جفونها راحت ترقبه في خفية. فلما دخل الكوخ اتجه صوب ركن قصي في الكوخ، ومد يده ليدفع حجرا ثقيلا يظنه الرائي أنه استعاض به عن مقعد ليجلس عليه أو منضدة صغيرة يضع عليها طعامه. ثم أخرج من داخل الحفرة التي يغطيها الحجر أكياسا مملوءة بالنقود... وأخرجها ليرصها على الحجر. ولما انبثق نور الفجر الصافي... تحركت كأنها استيقظت على صوت تسبيح صلاته، وقامت لتصلي بدورها، فلما انتهت من الصلاة اقترب منها قائلا: هذا المبلغ كل ما احتفظ به لأدفع الضر عمن يعوزه العون، وهو منذ الآن تحت أمرك. وسكت ليتأمل مظهر انفعالها، ومحاولتها عدم اكتراثها قائلة في هدوء وعدم اكتراث... لم يعد المال يغريني، حسبي عطفك وايماني.

قال:

بارك الله فيك.

قالت:

أتسمح لي أن أصارحك بأنني سأكون سعيدة لو سمحت وتزوجتني و نعيش في أي مكان اخر.

قال:

لن أتخذ غير هذا المكان بديلا... أما الزواج فلا أظنني أستطيعه، فقد وهبت كل ما تبقى من عمري لله، ووجودك بجانبي كزوجة أو صديقة مثلا يتطلب مني وقتا وفكرا!، ولا يمكنني أن أسترد جزءا مما وهبته لله، ثم لا تنسى أنه لابد لك من الاتصال بدنياك لوجود من يهمهم أمرك هناك.

قالت:

أن العطف على مثلي وحمايتها جزء من العبادة لله. أما أن هناك من يهمهم أمري فقد هيأت ما يكفل لهم حياة طيبة، فاشتريت بيتا كبيرا باسم أخي الذي بلغ سن الرشد وتخرج في الجامعة منذ عام، وقد عهدت اليه برعاية اخوته الصغار بدعوى أنني راحلة... إلى مصيف لبنان بضعة شهور.

وهنا قاطعها: وهل كان يعلم شقيقك بأسرارك... قالت: كنت قد أفهمته أنني أعمل ممرضة لسيدة مريضة ثرية... فقال: ألم يرتب فيك؟

قالت:

أبدا لأنني كنت حريصة على أن أظهر في البيت بمظهر الأم الوقور، أو الأخت الحنون المحتشمة، ولا أتصرف أمامهم أي تصرف مشين لكيلا أدفع بهم إلى الانحراف أو السقوط في الهوة التي سقطت فيها مرغمة... وأطرقت تبكي بكاء حارا... ولأول مرة منذ دخلت كوخه بكت بكاء طويلا كاد يفقدها صوابها، فحز ذلك في نفسه وقال: كل شيء انتهى يا ابنتي فاحمدي الله... قالت: ليتني استمعت الى ذلك الرجل الذي لقيني منذ عشرين عاما وأراد انقاذي من محنتي وفقري فأبيت.

قال:

ولماذا أبيت؟ قالت، والغصة تبتلعها أظنني لم أذكر لك فيما ذكرت أنني خرجت يوما من بيتي لأبحث عن عمل وليس معي مليم واحد إذ كان معي بضعة قروش اشتريت بها خبزا وجبنا لإخوتي. وسرت على قدمي وكنت أستريح في الطريق كلما تعبت وأسأل المارة عن العيادة التي قيل لي أن طبيبها في حاجة إلى ممرضة. وطال مسيري واشتد جوعي ولكنني تعففت عن سؤال أي كائن عن أجرة تذكرة سيارة أركبها، أو ثمن رغيف يخفف جوعي، وتصور فتاة في مستهل صباها

الباسم كسيرة القلب حزينة يتيمة بائسة مظلومة معدمة لا تجد بجانبها من يعولها أو يعطف عليها... كنت أسير وقد أظلمت الدنيا في عيني وضاق الطريق أمامي، وكأني مقبلة على هوة عميقة سوف تبتلعني، وظللت أمشي لأن الشقة كانت بعيدة جدا بين البيت الذي أقيم فيه وبين العيادة... وبعد سؤالي علمت أنه لم يزل أمامي شوط بعيد... وكان الجوع والتعب مع ضعفي قد حطما قواي فصعب على أن أتحامل على نفسي. فلا أنا قادرة على المضي في الطريق ولا أنا بمستطيعة أن أعود إلى البيت لأحمل لاخوتي قوتا يسد رمقهم...

وسرت أتعثر في خطاي من فرط الاعياء حتى كلت قدماي وجف ريقي... آه كيف أصور لك أساي وقنوطي في هذه اللحظات الرهيبة... لحظات الأسى المرير واليأس القاتل والضنك المروع مع الحظ العاثر... وأخيرا ركبني شيطاني و كان لابد أن يدفعني العوز والقنوط إلى اجتياز آخر مرحلة في طريق أملى المنشود فاندفعت نحو الاتوبيس وركبت دون تفكير... وجاء الكمساري يطلب التذكرة فأوعز الى الشيطان، وتكلفت البحث عن النقود في محفظتي.

ولما طال الوقت ضاق بي الكمساري، فأوقف الأتوبيس مهددا اياي بالدفع أو النزول، ووقعت في هذه اللحظة بين عاملين متناقضين، أن أصدق فأصارحه، أو أكذب فأتحايل، وغلبتني دموع الحيرة والارتباك والندم، فتأثر أحد الركاب ودفع الأجرة للكمساري وهو يقول له: مافيش في قلبك رحمة... باين عليها صادقة.. وتناول

الكمساري الأجرة وهو يقول: رحمة ايه، البنات دلوقت بتزاحم الشبان في العمل والنصب والاحتيال... ياما مر علينا... وتمتم أحد الركاب... ربنا يستر. وازداد ألمي وحزني حتى كدت أختنق بدموعي، وحاولت أن أغالبها مادامت الدموع أصبحت في عرف الناس وسيلة للنصب كما يقول الكمساري، ولما لاحت المحطة التي توصل للعيادة حمدت الله وهبطت مسرعة. وقبل أن تهدأ أنفاسي رأيت العيادة مغلقة لسفر الطبيب. وسرت في طريق العودة في حالة أسوأ مما كنت عليها لا أقوى على النطق... وأجر قدماي كمن أصيبت في ساقيها بشكل مفاجئ، ووجدتني مضطرة للمجازفة بركوب الأتوبيس مرة أخرى وليكن ما يكون من اهانة وسوء ظن، فقد عجزت تماما عن التحامل على نفسي وأصبح المسير فوق احتمالي. وبعد أن ركبت وطالبني الكمساري و كررت تمثيل دور التحايل... لقيت من الكمساري قسوة أكثر من سابقه، فقد كان لسوء حظي ضيق الصدر ساخطا ناقما من فرط. ما يعانيه قائلا بلهجة هذيان المجنون: «تعمل ايه الثورة أكثر من كده... عملت كثير... انما الداء متغلغل في النفوس... وهنا يعقب أحد الركاب: المهم الأخلاق... وترفق آخر به قائلا: (معلهش... ربنا يعدلها، طول بالك أهي الثورة بتجاهد وعلينا نجاهد معاها. فعاد الكمساري ساخطا... والله الواحد قرفان من البيت... تصور ١٢ عيل أكبرهم ١٦ سنة... وشهقت احدى الراكبات: ليه... هي مراتك أرنبة؟ ونظر اليها الكمساري شذرا وهو يقول ربنا عايز كده نقول له ايه؟ وعقب أحد الركاب: ربنا خد لنا عقل. وقالت احدى الراكبات: أحسن حاجة يفكر فيها المصلحون تحديد النسل. وشغل الركاب بأمر الكمساري. ولم ينس الكمساري مطالبتي بالأجرة، وأوقف الأتوبيس: وكنت قد قطعت شوطا

فاضطررت للنزول خوفا من اهانتي ما دام أحد الركاب لم تتحرك أريحيته وكاد السائق أن يوقعني تحت العجلات لسرعته وسخطه كأن حياة الآدميين في نظره لا قيمة لها، وكيف يكون لها قيمة وهو كما يقول: الناس أصبحت كالحيوانات.

وأثر انزلاق قدمي علي فعجزت عن المضي في طريقي، ووقفت أبكي متكئة على عامود الكهرباء... أجل رحت أبكي بكاء مرا لم يعرفه تاريخ اليتامى المنكوبين، ورفعت بصري إلى الباري أسأله النجدة والرحمة: ياربي ما عساي أفعل؟ صعب علي الاستغاثة بالمارة لأن المصيبة إذا عظمت تصير خرساء... وانتصف الليل ومر بي الشرطي، وبينما هو يستجوبني ويري أن يقودني إلى القسم... مر بي الرجل الذي أنقذني في أول عربة، فراعته رؤيتي على هذه الصورة، وحكيت له ما أصابني. ودون تعليق استوقف عربة أجرة وساعدني على الركوب، وعرض علي أن أذهب معه إلى طبيب فرفضت. وهنا وضع بين يدي خمسة جنيهات، وأمر السائق أن يوصلني إلى بيتي، وكلفني أن أعالج نفسي ولم يترك لي فرصة لمعرفته أو شكره على الأقل... وغاب في ازدحام الطريق... وتنهدت المرأة في تحسر ثم قالت: كان هذا الرجل هو الانسان الشهم النبيل الذي رأيته في حياتي..

وسكتت المرأة لحظة لتجفف مدامعها التي انهالت، كأن الذكريات فتحت في عينيها ينبوعا من الدموع، بينما ابتسم الناسك متلطفا معها وهو يقول: وإذا رأيت هذا الرجل اليوم أتعرفينه؟ قالت: لا أدري ماذا فعلت به الأيام... قال في هدوء... لا أظنك تعرفينه فقد تقدم

به السن طبعا... وابتسم وهو يقول: اني أعرفه... لقد قص علي ذلك، وقال انه كان صادقا حينما عرض عليك مصاحبته الى عيادة طبيب لعلاج ساقك في التو، ثم يعيدك سالمة إلى بيتك طالبا من أهلك أن يصحبك معه حيث يقيم بعد أن يتزوجك في الوقت نفسه، ولكن يبدو أنك أسأت الظن به، أليس كذلك؟... قالت: أجل... ظننته كالآخرين... فلما أحسن إلي ومضى... تعلق خاطري به إلى هذا الوقت... قال: هل أفهم من ذلك أنك أحببته؟ قالت: كل الحب ولم أحب سواه... قال: هبي انك التقيت به الآن أينا تأثريه؟... قالت: هو... قال: ولكنك اعترفت لي منذ لحظة أنك

تأثرين البقاء معي حتى الموت... قالت: لأنك صورة مماثلة له. وابتسمت في دعابة لطيفة وهي تقول: إذا وجد الأصل يمكن الاستغناء عن الصورة... قال: اذن أنت لا تحبينني... قالت: في الواقع أنا أحبك فيه... وأحبه فيك... ولا أدري بالضبط أيكما أحب لأني لا أستطيع أن أفصل بينكما. هو روح ظهرت أمامي واختفت، وأنت روح لم تزل قائمة معي... فترجيحي للأبقى طبعا. ثم جذبت يده وهي تقول... تصور أنني أشعر أحيانا أنك هو... هو تماما، وان كنت لم أتبين ملامحه في الساعات الخاطفة التي رأيته فيها... ان صوتك برغم مرور الزمن يشبه صوته، وعيناك فيهما لمعان عينيه الهادئتين السابحتين في ملكوت الله... وقد تبدو أكثر شبها إذا حلقت لحيتك... وابتسمت في دعابة وهي تقول... كم أتمنى لو تحلق لحيتك... ثم أطرقت خجلا وهي تقول... لتكون أوفر صحة و نشاطا... لأن اللحية، كما أعتقد، تشعر الرجل أنه في سن اليأس، وهذا الشعور يميت في نفسه طاقة الحيوية والنشاط فيكره العمل ويمل الكفاح.

قال:

بالعكس، انها تشعرني أنني أخطو على طريق الأبدية فأحسن أداء الأعمال التي تقربني إلى الله.

قالت:

هذا منطق الزاهدين... المهم حدثني عن صاحبك... وماذا قال لك عني؟ قال: أخبرني أنك كنت أول امرأة أعجب بها وغالب الشيطان فيها، وتركها دون أن يمسها بسوء، وقد كان لا يعرف المرأة الا للمتعة والتسلية واللهو والعبث في ذلك الحين.

فاستردت المرأة بشرها وارتاحت لهذا الاعتراف، وقالت: ليتني رافقته... وتزوجته... لشد ما أندم على هذه الفرصة التي لم تعوض... ليتني ذهبت معه قبل أن يتدنس بدني... ثم بكت بكاء مرا وهي تقول: تصور أنني سأتواري منه لو رآني اليوم، وإذا طلبني لا أجد في نفسي الشجاعة الكافية لقبوله... كنت قبل ملاكا، أما اليوم فقد لوثني الشيطان.

فترفق الناسك بها وعطف عليها وقال: لا ضير يا ابنتي، قدر عليك العذاب والألم لتشف روحك، ويتطهر قلبك بعد أن انصهرت نفسك في بوتقة آلام التجارب القاسية التي مرت بك... وربت على كتفها في حنان مردفا... انعمي يا ابنتي بالتوبة... انعمي. فعادت تقول في لهفة وبصوت حنون: حدثني عن صاحبك وماذا قال لك عني أيضا؟

قال: ظل يذكرك ويذكر حديثك كأنه التقى بك في الساعة التي حدثني عنك فيها برغم ما مر من أعوام على هذا اللقاء.

فقاطعته:

وأين عرفته؟ أعني أين هو الآن؟ قال في هدوء... كان رفيقي منذ الطفولة... كنا كظلين لا يفارق أحدنا الآخر... في بيته أو في بيتي... في الشارع أو في المدرسة أو في الليل وقت العبث والمجون... وكان آخر عهدي به يوم ودعت المدينة، وكان هذا اليوم هو الحد الفاصل بين حياتين، حياة اللهو وحياة الزهد... لكل منا...

فقاطعته غاضبة:

إذن صدق ظني... التقى بي وهو في عهد لهوه، قال: لا تظلميه... كان قد ودع لهوه منذ أيام، وتاب إلى الله وكان في طريق الخلاص المطلق الذي ارتضاه لنفسه وفرضه على وجدانه شأني أنا تماما.

وعادت تقول في تحسر: ولماذا لم يأت معك هنا لتعيشا معا ماتبقي من عمركما مادمتما تتشابهان في الميول والرغبات والايمان؟... ووضعت يدها على كتفه في رجاء وحنان مردفة... وماذا قال لك عني؟

قال:

صور لي موقفك وأنت واقفة هنالك متكئة بظهرك على عامود الكهرباء، و تحت تأثير الحاحه قلت له ما يحفظه عن

ظهر قلب، كما يحفظ العابد آيات القرآن.

قالت في لهفة:

ماذا قال لك؟

قال بصوت خفيض مموج النبرات كأنه يستذكر ما حفظه من زمن بعيد... أتستطيع أن تدل فتاة يتيمة وحيدة عن مرفأ تلجأ اليه؟... ولما قال لك في مقدورك أن تعملي أي عمل في احدى المصانع والشركات وهى تفسح المكان لمثيلاتك. تحولت فجأة إلى بر كان يغلى، فصرخت في وجهه ثائرة... أنتم جميعا ظالمون رجالا ونساء. ان في قلبي نارا وفي عقلي نارا وأخشى أن تدفعني هذه النار لحرق غيري فإذا لم أستطع حرقت نفسي لأستريح... كلكم أهل شر وسوء، ماجريرتي بالله حتى أساق إلى هذا العذاب كما يساق المجرم القاتل إلى حبل المشنقة؟... اني أخشى أن أسف الى الحضيض... ولو حدث... فيا ويل من يقع بين يدي... وسكت لحظة ثم تنهد قائلا: كم كنت رائعة فاتنة في ثورتك، كما أنت رائعة في هدوئك... قالت... انك تتحدث كأنك رأيتني... قال... اني أتصورك على ضوء ما نقله إلي صاحبي.

ونظرت اليه المرأة نظرة وعي قائلة: لقد تذكرت... تذكرت موقفي يومئذ، وكيف تحجرت مدامعي وتقاطرت بدلها من فمي نغمات تبدو للسامع صدى لرنين الضحك وأنين العويل، وتبدو للرائي صورة أليمة مروعة للحقد واليأس والظلم والقسوة والحرمان. فلا هي دموع منهمرة تعبر عن ألم فحسب، ولا هي ضحكات ساخرة، بل أنغام خافتة كالهمسات التي لا تعدو الشفتين متشابكة المعاني كتشابك الأحداث

والآلام التي مرت بي... وسكتت لتتنهد في مراره وعقبت... أجل... كأنها ومضات حسية تظهر بمعناها العميق، وتأبى أن تفارق الصدر ليظل يغلى كالبركان... ثم نظرت اليه وهي تقول بصوت واضح: وماذا قال لك أيضا؟ فنظر اليها كأنه يستلهمها، وقلت له أيضا: لو كان الحرمان يتعلق بي وحدي لهان الأمر، ولكنه يتعلق باخوتي ولا عائل لهم سواي. ولقد نصحني بعض المعارف أن أدخلهم الملجأ... وكدت أفعل لولا أنني علمت أنه بالرغم مما تبذله تلك المؤسسات من تعليم وتأديب واتقان حرفة فان خريجها يواجه الحياة وفي نفسه حقد على المجتمع الذي يفرق بينه وبين أولاد الأشراف، فيظل في حسبان الناس لقيطا، أو على الأصح نتيجة جناية خاطئة... وقل في الناس من يرحم اليتيم أو اللقيط... يكفي أن يعلم أي انسان يواجه رجلا أو امرأة أنه خريج مؤسسة الأيتام حتى يتبادر إلى ذهنه أنه لقيط... إذ المفروض أن اليتيم لابد من وجود أهل يعولونه إذا فقد أبويه. لذلك أعرضت وأبيت أن أزج باخوتي في مؤسسة يخرجون منها وفي صدورهم عقدة نفسية تلازمهم مدى الحياة ان لم تكن من أجلهم كأيتام فمن أجل اخوانهم اللقطاء.

وهنا تقاطعه... حقا قلت له ذلك كأنك أنت الذي سمعتني وتعيد الآن كلامي... ثم عقبت، وقلت له أيضا: ليت الدولة تتبنى الأيتام واللقطاء، وتعهد بهم الى معاهد تربوية لا فارق بينها وبين المعاهد العامة للشعب. فقد يكون من بين هؤلاء العباقرة والفلاسفة والمخترعون، وقد يكون فيهم من يحمل في صدره فضائل جمة وميزات عدة ومواهب نادرة... وسكتت لتجفف دموعها... ثم قالت: ترى

ماذا فعل أخي باخوتي؟... لقد علمته أن يكون رحيما وعطوفا وبارا فهل تراه حريصا على ما عودته أياه؟

قال الناسك:

بلا شك.

قالت:

أخوف ما أخافه أن يتعرف على امرأة غير صالحة فتفسد أخلاقه، وتحول عواطفه من الحدب على اخوته الى القسوة والجحود.

قال:

لا أظن أن معدن الذهب يتحول إلى حديد. قالت: صحيح، ولكن أحيانا تمتد اليد الشريرة إلى الذهب الخالص فتخلطه بمعدن رخيص فتقل قيمته، وسكتت سارحة في اخوتها ففهم الناسك مايدور بخلدها فقال: أراك قلقة!

قالت:

قلبي يحدثني أن شيئا جديدا لا يسر قد حدث لأختي، إنها الآن في مقتبل العمر وهي على جانب كبير من الجمال والفتنة لذلك حرصت على تعليمها ليكون معها سلاح تصد به عاديات الدهر... وأظنها انتهت من دراستها الثانوية هذا العام... وبكت وهي تغمغم ترى ماذا جرى؟

قلبي يحدثني بأنها على غير ما أحب لها.

قال الناسك:

إذن لكي تطمئني، اذهبي اليهم كأنك عدت من السفر. فإذا طاب لك المقام بينهم، اسمحي لي ان شئت أن أزورك من آن لآن كأنني شقيق السيدة المريضة التي كنت تقومين على تمريضها.

فسكتت لحظة تفكر... ثم انتصبت واقفة وهي تقول: معك حق... يجب أن أذهب حالا لأطمئن... ونظرت اليه وهي تقول: قد لا تصدق إذا قلت لك ان اهتمامي باخوتي وحبي لهم فوق اهتمامي بنفسي وحبي لمن أحب.

قال بدعابة الشيخ الوقور:

حتى ذلك الرجل الذي أحببته؟

قالت:

حتى هو مع أن حبي له لم يعرفه تاريخ المحبين... وقبل أن تغادره قالت: قد أعود وقد لا أعود اليك... ولكي يطمئن ضميري أصارحك أنني جئتك خادعة، وتركتك مؤمنة صادقة... وأرجو أن تحتفظ بمالك في مخبأ أمين، فهناك أشرار لا يعرفون الله... قد يحاولون الفتك بك للاستيلاء على ثروتك إذا اشتموا رائحتها... وودعته راجية أن تتمكن من العودة قائلة له: إذا قدر لك ورأيت صاحبك... بلغه

سلامي وحبي، وقل له انني لم ولن أحب سواه... وحتى ألقاك أرجو أن يحفظك الله بخير.

وذهبت الى بيتها فجأة... فاستقبلتها سيدة جديدة لم ترها من قبل ولم تلبث حتى عرفت أنها زوجة شقيقها، وانها أصبحت صاحبة السلطان في البيت... واستطاعت بحكم خبرتها أن تدرك في التو أنها غليظة القلب جامدة الوجدان، لا تولى اخوة زوجها أي عطف أو رعاية، بل تستغلهم لخدمتها والقيام بشئون البيت... ولما سألت عن أختها... قيل لها أنها تركت البيت منذ شهور. وانتهزت زوجة الأخ الفرصة فراحت تقص عليها من سوء تصرفاتها الخلقية ما يبعث الحمرة في وجه المرأة الفاضلة، مبالغة فيما يبذل زوجها من عناية واهتمام لتتخلى عن مسلكها المشين، وما بذلته هي بدورها من عطف، وما أسدته من نصح لها في اخلاص فلم ترتدع عن، واضطرت الأخت أن تتحرى وتتصل بزميلة أختها في المدرسة فعلمت منها، بعد الحاح ورجاء، أنها التحقت في وظيفة بمصلحة التليفونات لكي تعول نفسها بعد أن نالت من زوجة أخيها من القسوة والجحود ما جعل حياتها في بيت أخيها لا تطاق. وكان الأخ يقف دائما بجانب زوجته ضدها ويقسو عليها متغاضيا عن التزاماته التي تفرضها الأخوة نحوها على الأقل... وفي عملها تعرفت بشاب أحبها، وفي آخر زيارة لها أخبرها أنهما اعتزما الزواج... وأعطتها عنوان عملها. فذهبت اليها في اليوم التالي أثناء العمل فلم تجدها، وقيل لها، في شيء من الاحتقار، أنها تركت العمل. فهالها الأمر وروعها وعادت إلى صديقتها لتستعين بها في البحث والتحري. وأخيرا لجأت الى الشاب الذي ذكرت اسمه صديقتها، وهو موظف معها في المصلحة التي كانت تعمل بها، ولما

سألت عنه أخبرها صديقه الذي يلازمه في المكتب أنه في أجازة لمدة شهر عند أسرته في الصعيد. ولاحظ الشاب ما انتابها من هلع وفزع فترفق بها، وفي كياسة ولباقة عرف منها ما وصلها من معلومات تنبيء بأنه تزوج أختها... وكان زميله يعلم أسراره، فأخبرها أنه لم يتزوجها لأسباب قوية خارجة عن ارادته قد تكون بسبب معارضة أهله. وأعطاها عنوان منزله لتستجلي حقيقة الأمر من جيرانه، فربما تغلب على العقبات خلال اجازته وكتم الأمر حرصا على مصلحته، وحاولت أن تؤثر عليه للافاضة فاعتذر في لباقة بدعوى أنه لا يعرف أكثر من ذلك... وطلب منها أن تقابله بعد يومين في منزله الخاص ريثما يتحرى ويجمع لها كل ما يهمها معرفته...

وذهبت في التو إلى العنوان الذي أعطاها اياه زميله فوجدت مسكنه مغلقا. وعلمت من البواب أنه سافر لأسرته في الصعيد... ولما سألته عن زوجه... نفى البواب خبر زواجه... وعندما همت بالانصراف استوقفها قائلا: علك تسألين عن البنت التي كانت تعاشره هنا... لقد أمضت معه حقا بضعة شهور على أمل أن يتزوجها، ولكنه رفض ولما خافت من الفضيحة رمت نفسها من النافذة... ولكن الله سلم وأصيبت ببعض جروح نقلت إلى المستشفى، ولجأت إلى السيدة التي تقطن في الشقة المجاورة له، فعلمت منها أنها لم تزل في المستشفى... وكادت تصاب المسكينة بانهيار عصبي، ولكنها تمالكت نفسها وأسرعت إلى المستشفى وبعد عناء استطاعت أن تقابلها ووجدت أختها الشابة اليافعة وقد تحولت إلى حطام يجزع الرائي لمرآه... وكان لقاؤهما... لقاء دموع الحسرة والندم بدموع القلب الحاني المجروح...

وطال صمتهما وانهمار دموعهما إذ لم تدر كل منهما كيف تبدأ الحديث.

وأخيرا قالت الأخت الصغيرة، بصوت متهدج متكسر تظهر بعض ألفاظه ويذوب بعضها ليتحول الى غصة مريرة: ليتك لم تسافري وتتركينا تحت رحمة أخي... لقد كنت حسنة الظن به إلى أقصى حد... وابتلعت ريقها مردفة... وكذلك نحن... كلنا كنا نتوسم فيه الحنان الخالص والعطف الأكيد... ولم ندر أنه كان يتكلف ذلك مرضاة لك أو لأنه كان في حاجة اليك... فلما رحلت ووضع يده على ايجار البيت، وأصبح صاحب السلطة... بات ينفق علينا في تقتير، ثم تحول فجأة إلى شاب لا عهد لنا به... فلم يعد يجالسنا أو يسامرنا أو يستقصى أمورنا ويراجع دروسنا... وراح يقضى كل وقت فراغه خارج الدار.

و فجأة غير نظام البيت، فجمعنا كلنا في غرفة واحدة، وجدد الأثاث وهيأ المنزل، وبدأ يستعين بامرأة عجوز كانت تتردد من حين إلى حين عليه و تخلو به ليتجاذبا أطراف الحديث بعيدا عنا وفى حذر... ولاحظت أخيرا أن هذه العجوز كانت توجهه ويعمل بارشادها دون تردد... وهي التي هيأت له غرفة النوم الجديدة و باقي الأثاث.

وبعد أن تم ذلك في أيام وجيزة جمعنا في صباح يوم وقال لنا: اليوم ستحضر عروسي، ولا أريد أن أسمع منها أي شكوى، ستكون هي صاحبة الأمر هنا، كونوا مطيعين لها، وأعلموا كل ما تأمركم به... وتركنا مدهولين لا ندري ماذا نقول... وهالنا الأمر، إذ كيف يتزوج وأنت غائبة - - ودون علمك... النهاية، حضرت العروس، ومن أول

يوم عاملتنا كأننا خدم لها، فوزعت علينا أعمال البيت لا فرق بين ولد أو بنت، الكل يكنس ويمسح ويغسل الأطباق والملابس، فإذا رجوناها أن تترك لنا فرصة للمذاكرة... لطمت الصغير على وجهه، وأهانت الكبير اهانة فظيعة، كأن ما نتناوله من طعام ومانرتديه من ثياب من مال أبيها الخاص، و كأن وجودنا معها في المنزل تفضل منها وشفقة، ولولاها لطردنا شقيقنا... النهاية. - طال عذابنا جميعا، وكنا نتحمل ايذاءها وقسوة شقيقي على أمل أن تحضري -- ولكن غيابك طال... ولم يعد أخي يذكرك بخير أو بشر، بل تمادت زوجته في اهانتنا، وأفهمتنا أنك هربت من رعايتنا وتركتنا لغير رجعة... - ولما حان موعد دفع مصروفات المدرسة... رفض أخي بدعوى أن الحالة المالية - لا تسمح بالصرف على المأكل والملبس والمدرسة... وأنني بنت ولا داعي لتعليمي، ويكفي أنني قطعت نصف مرحلة التعليم الثانوي، وفي مقدوري أن أشتغل بالشهادة الإعدادية... و فهمت من سياق حديثه أن زوجته كلفت أحد معارفها لايجاد وظيفة تناسبني وبعد مدة وجيزة...

جاء قريبها ليهنئني بقبولي في عمل بمصلحة التليفونات، وعلى أثر تقديم أوراقي استلمت عملي، وبدأت أتنفس الصعداء لبعدي عن المنزل لبضع ساعات على الأقل... وفرض علي أن أعطيهم مرتبي لقاء مأكلي واقامتي... فقبلت... ولكنني شعرت باختناق لا يفارقني، وبدأت صحتي تضعف رويدا رويدا من سوء التغذية وأعمال البيت المرهقة، إذ كنت أعود من العمل فأجد الغسيل والكي في انتظاري، عدا رعاية شئون اخوتي من اصلاح الملابس الممزقة، وتحويل ملابس الكبار إلى الصغار توفيرا لأخي... واعادة تنظيف ما أهمل اخوتي

تنظيفه... ولاحظت زميلتي في العمل أثر الإرهاق وما أعانيه في العمل من مكابرة من فرط اعيائي وضعفي، فترفقت بي وأشعرتني بالحنان والعطف حتى أنست اليها، وفتحت لها قلبي وصارحتها بما كنت أخفيه من أمري... فازداد عطفها ونصحتني أن أترك البيت وأستأجر غرفة لي وحدي، ومرتبي يكفي لتدبير شئوني، ورفضت خوفا من أخي وحرصا على رعاية اخوتي الصغار... وظللت أواجه متاعب البيت بصبر واحتمال لا يمكن لفتاة في مثل سني أن تحمله... حتى ازدادت حالتي الصحية سوءا وأصبت بنزلة شعبية... ومنحني طبيب المصلحة اجازة شهرا، ولم تكد زوجة أخي تعلم بمرضي حتى خافت على نفسها من العدوى، واتصلت بالمسئولين في المصلحة لتحويلي الى مستشفى الأمراض الصدرية بحلوان... ولم أجد أية غضاضة بل لعلي فرحت لبعدي عنها وحرصا على صحة اخوتي. وفي المستشفى كانت تتردد على زميلتي من آن لآخر وفي يوم ما أحضرت معها الرئيس الذي أعمل تحت اشرافه، وأحاطني بكثير من العطف والرعاية، وأفهمني أنه عرف من زميلتي ما أعانيه في البيت، وبدأ يتردد على حاملا معه في كل مرة هدية، ولا أكتمك أن عطفه أثر في نفسي فشعرت نحوه بعاطفة أسميتها يومئذ تقديرا واعجابا، ومضى الشهر وتحسنت صحتي، ولكن الرئيس جدد لي شهرا آخر ليتم شفائي، وقبل أن ينتهي الشهر الثاني كنت قد تماثلت للشفاء تماما، وصرح لي بالخروج، وقبل أن أغادر المستشفى، نصحتني زميلتي ألا أعود إلى المنزل خشية أن يعاودني المرض، ونبهتني إلى انتهاز هذه الفرصة، وخصوصا أن أخي وزوجه لم يحضرا لزيارتي أبدا، وأخي الذي يقرب من سني جاءني خلسة وأخبرني أنه ترك المدرسة الثانوية التي ألحقته بها، لأن أخي رفض دفع مصروفات المدرسة والكتب، مما اضطره

إلى أن يعمل في احدى الشركات الصناعية، وينتسب للتعليم من الخارج، وحمدت الله على أن ما يعانيه من نصب وحرمان، لم يثنه عن عزمه وتعليمه، بل حفزه للمضي في طريق التعليم بأية وسيلة معتزما أن يتم دراسته، عن طريق الانتساب، حتى آخر مراحل التعليم. ومارحني أنه بمجرد حصوله على الثانوية العامة وايجاد عمل بمرتب يكفل حاجاته الضرورية ويزيد، سيرعى اخوته حتى نهاية مراحل تعليمهم، ولن يتزوج حتى يحقق الله أمله فيهم... وتنهدت المريضة في تحسر وهي تقول: من يدري ماذا هو صانع بنفسه وباخوته؟... من كان يظن أن الأخ الكبير الحاني العطوف البار يتحول إلى انسان جاحد عاق.

وقاطعتها الأخت:

دعينا من ذلك واخبريني ماذا فعلت بعد خروجك من المستشفى؟ فقالت بصوت تخنقه العبرات: لكم كنت أتمنى أن أحقق آمالك في... ولكن هذا نصيبي. النهاية... أثرت على زميلتي ووعدتني بايجاد غرفة صالحة لاقامتي بالقرب منها... ولما حضر رئيسي وأخذت رأيه، إذ كانت العلاقة قد توطدت بيننا إلى حد يسمح لي بأن أفضى إليه بكل شيء، فلم يوافق وأفهمني أن ذلك لا يتفق مع كرامتي وسمعتي كعذراء ووعدني بالتفكير في هذا الأمر... وفي اليوم المحدد لمغادرة المستشفى، حضر إلي وأخبرني أنه وجد لي غرفة لدى أسرة كريمة لكيلا أتعرض لأقاويل السوء... وصحبني إلى مسكن هذه الأسرة، وهناك وجدته منظما

منسقا وليس به غير خادم يقوم بالطهي وتنظيف البيت... ولما سألته عن أهل البيت أخبرني أن أسرته هي التي تقيم في هذا المسكن وأنهم على سفر لقضاء مدة الصيف بالاسكندرية... وأردت أن أغادر البيت ريثما تعود الأسرة، ولكنه أقنعني في لباقة و كياسة بأنه لا ضير مطلقا من بقائي، وقد استأذن والدته قبل سفرها فوافقت وهي سيدة طيبة حنون وسوف تحبني جدا عندما تراني، وسأجد في قربها عطف الأمومة وحنانها الأكيد، كما أفهمني في صراحة أنه لن يمكث في البيت غير ساعات النوم ولن يشعرني بوجوده... وقد حاولت اقناعه بضرورة مغادرتي البيت، ولكنه أصر على بقائي و ترك لي حرية الأمر بعد أن أقضي مدة النقاهة... وزارتني زميلتي بناء على رغبته وشجعتني على البقاء ونصحتني بعدم العودة إلى بيت أخي، وأفهمتني أن هذه هي فرصة العمر لأن الرئيس يحبني حبا وفيرا، ومن مصالحي أن أبادله الحب والثقة، ومرت مدة وهو عاكف على رعايتي في ادب ووقار دون أن يمس كرامتي بأي سوء، أو يحاول مغازلتي مغازلة دنيئة، ولما كنت كغريق يتطلع للانقاذ اطمأن قلبي الى مسلكه الطيب و حسن نواياه وطيب عنصره. وشعرت بعاطفة صادقة تدنيني منه.

وعدت إلى عملي وقد نصحني ألا أشعر أي أحد بعلاقتي به واقامتي معه غير زميلتي التي يثق فيها لكي تهون على الوحدة بزيارتها في يوم العطلة أحيانا.

وانتهى الصيف... وأقبل الشتاء ولم تعد أسرته، ولما سألته عن سبب تأخر الأسرة... قال: لقد سافرت الى الصعيد مباشرة لانها تقيم هناك بصفة دائمة... وتزوره من حين إلى حين، ولما لاحظ وجومي وأدركت بذكائه ماراود ذهني، صارحني بأن المدة التي أمضيتها معه كافية لدراسته، وسألني رأيي فيه كزوج. ولا أكتمك أنني أخذت بهذه المفاجأة... وذاب الجواب بين شفتي المرتعشتين وأطرقت واجمة... فعاد يقول:

كوني شجاعة... صوري مشاعرك نحوي بالضبط، فإذا كنت تبادلينني حبا بحب أو تشعرين نحوي بشعور المرأة المضطرة لمعاشرة رجل وهي لا تألفه... فلست بكاره لك... لانني أحبك حبا لا يمكنك أن تتصوري مداه وعمقه. حبا قويا جارفا لم يحبه رجل لامرأة الا في أقاصيص قيس و ليلى وروميو وجولييت... وطال سكوتي عن حيرة وارتباك... لا أدري ماذا أقول... فاستطرد... أتحبينني؟... قلت: أجل... قال: أتوافقين على أن تكوني زوجة لي؟... قلت: أكون سعيدة.

قال:

إذن اتفقنا... وتركني بعد أن قبل يدي قبلة عميقة حارة... وغادرني ليعود إلى عمله... ولما خلوت بصديقتي وصارحتها بما دار بيننا عانقتني مهنئة قائلة: أو لم أقل لك هذه فرصة العمر... انك محظوظة... لطالما حاولت كثيرات من البنات اللاتي يعملن في مراكز أكبر من مركزك ويفقنك

تعليما أن يحزن رضاه ويلفتن نظره فلم يستطعن فاكتمي الأمر حرصا على سعادتك حتى لا يلاحقك الحقد والحسد.

ومرت مدة أخرى هيأ لي خلالها ملابس جديدة فاخرة، واشترى لي كل ما يعوزني من أدوات التجميل والزينة والحلى... ولا أستطيع أن أصور لك مبلغ سعادتي عندما طلب مني ترك العمل لعقد القران لكيلا يتهم في المصلحة بأنه كان على علاقة مع مرؤوسة له... وطمأنني على اخوتي،. فصارحني بأنه يسمح لي بأن أمد أخي الطالب بمساعدة مالية شهرية، أسلمها له عن طريق جارة لنا أثق بها و كانت تعطف علي.

وتركت العمل ورحت أترقب بفارغ الصبر عقد القران وخصوصا أنه أصبح يلازمني ليل نهار ويعاملني كزوجة دون أن يمس جسمي. ولما اعيل صبري، اضطررت الى مصارحته بأنه لا داعي لتأجيل عقد القران بعد أن تم تفاهمنا، وسكت لحظة ثم سألني: هل يمكن أن تحدث أي عقبة تحول بين قراننا؟ قلت في يقين: من ناحيتي أنا لا يمكن. لقد وطنت النفس على احتمال كل شيء في سبيلك.

قال:

هل هناك قوي أقوى من حبك؟

قلت:

لا يوجد ولم تخلق هذه القوة. انك لا تتصور مبلغ حبي و اعزازي لك... انك أبي وأمي وأخي وأختي وحبيبي

وزوجي... انك حاضري ومستقبلي... انك كل شيء في حياتي... فنظر إلي نظرة عميقة كأنما يتبين صحة كلامي، ثم قال بصوت هادئ رزين: حتى إذا كان ديني غير دينك... هنا اصفر وجهي واضطربت جوانحي وارتج عقلي وفقدت النطق، وبعد وقت - لا أدري كيف كان قلت وأنا أشد الارادة من أعماقي شدا لتعينني على التعبير: ماذا تعني؟

قال في هدوء وعلى ثغره بسمة:

أنا مسيحي وأنت مسلمة... ودارت الدنيا بي، وقام صراع بين عاطفتي وعقيدتي، ووقعت فريسة خيبة الأمل التي لم أكن أنتظرها. وتحول الرجل في نظري إلى ثعلب أو ذئب فصرخت صرخة اختفت في أعماقي، وخرجت من بين شفتي كأنين المذبوح: ولماذا لم تصارحني بذلك من قبل؟ قال: ظننتك تعرفين. فلما أيقنت انك لا تعرفين، شئت أن أفتح لك قلبي لتلمسي حقيقتي ثم أصارحك... قلت: لم أكن أعرف أنك مسيحي لأن اسمك حسني واسم أبيك ممدوح، وكلاهما من أسماء المسلمين... فقاطعني: ها أنت عرفت فماذا ترين؟ فسكت ولم أتكلم... فعاد يقول: قولي كلمة واحدة تعبر عن قبولك أو رفضك... وسأقف بجانبك في الحالين مع الفارق بين موقف الزوج أو موقف الأخ، ومر بخاطري كل شيء الا أن أكون زوجة لرجل مسيحي وكأن عقيدتي تنبهت في التو فقلت في جد واصرار: لا ياسيدي لا أستطيع أن أتزوج برجل مسيحي... فابتسم ابتسامة تحسر وهو

يقول: هكذا تسدلين الستار بيننا وتحولينني من مرتبة الحبيب الى مرتبة السيد الغريب... ثم وقف في هدوء وهو يقول: سأتركك وحدك لتفكري جيدا حتى أعود اليك. وغادرني ليذهب الى عمله... فقمت أجمع ملابسي القديمة التي اقتنيتها من مرتبي الخاص تاركة له الملابس التي اشتراها من ماله وكل شيء... وتأهبت للانصراف بعد أن كتبت له ورقة أشكره على عطفه ورعايته معتذرة له عن اضطراري لمغادرته... وقبل أن أغادر البيت عاد مسرعا وقال انه لم يستطع أن يؤدي عمله وهو مشتت الفكر موزع المشاعر، وترفق قائلا: أرجو ألا تتعجلي في اصدار حكمك، فحياتي بدونك لا تطاق، وحدثني حديثا طويلا ليثبت لي أنه مسلم بقلبه ولكنه لا يستطيع اشهار اسلامه رعاية لسمعة أسرته، ومستقبل اخواته البنات و استشهد بحوادث كثيرة من هذا النوع.

ووجدتني أزداد تمسكا بعقيدتي وديني، فأردفت في اصرار قائلة له أن هؤلاء الوجهاء والعظماء الذين تتحدث عنهم وتريد أن أتمثل بنسائهم البارزات لست من طينتهم... وهؤلاء جميعا ليسوا قدوة مثالية ياسيدي فيهم الماجن والفاسد وفيهن المستهترة والفاجرة، وقد تحطموا جميعا على صخرة الشرف والكرامة وتناثروا ذرات ضائعة في صحراء العدم... ولم يبق منهم غير طعام الأوهام... وذكري الضلال.: وهنا بدأت الأخت الكبيرة تسترد ما انقطع من أنفاسها اللاهثة وقالت: ولم لم تستغلي عاطفته لهدايته وتؤثري عليه ليعتنق دينك؟ فقالت في حدة: وهل تظنين أن مجرد التأثر العاطفي يكفي لتحويل عقيدة ورثها المرء

وتأثر بها منذ ولد؟ أي سرت في دمه وشرايينه. اني أشك في صحة أي تحول ديني بل أكاد أجزم بأنه باطل مغرض، خصوصا إذا كان من أجل امرأة، وقد يصح التأثر بمؤثر خارجي. لقد أراد أن يعتنق ديني لنتزوج، ولكنني تعاليت بديني وسموت بعقيدتي وضحيت بحبي في سبيلها، وحيال اصراري تركني وشأني ولم يستغل ضعفي... ولقد عرفت، بفضل هذا الرجل، أن شفافية الروح لا علاقة لها بالميول والرغبات، وقد كانت روحه شفافة قادرة على أن تطويني تحت اشعاعها النوراني... لكن أشعاع ديني المتين كان أقوى من اشعاعها... وأشهد الله أن الرجل كان شهما نبيلا لأنه كان مسيحيا عريقا في مسيحيته، يفهم دينه على حقيقته، ويعمل بهدي تعاليمه القويمة للتسامح والبر والحب والصدق والأمانة، كما أكبرته لاحترام ديني لاعتقاده انها اشعاعات ربانية يجب أن تقدس وتصان حرمتها، وجميعها يدعو للحب والأمن والتضامن والسلام إذ قوامها الفضيلة، فلو أن جميع الناس تمسكوا بفضيلة أديانهم لاجتمعوا جميعا عند الحاكم الأعلى، وهو الله.

وقد عرفت منه أيضا أن الله يبسط نوره على المخلصين له، فتشف أرواحهم وتكون أشبه بالأجنحة يستعين بها المخلوق على السمو بنفسه والارتفاع بذاته عن مصاف أبناء السوء، وأخيرا نصحني الرجل الا أترك داره ريثما أبحث لي عن مأوى يكفل لي الحياة الطيبة، بل بالغ في تضحيته بذاته فراح يبحث لي باهتمام عن زوج كريم... وبعد مرور أيام قلائل قبض على الرجل بدعوى أنه متصل بجاسوس انجليزي كان يراسله، وقبض علي أيضا كشريكة له بحكم اقامتي معه، وظللنا رهيني السجن، وأشهدالله أن الرجل كان وفيا شريفا، إذ

حاول أن يبعد الشبهة عني، وأخذ التحقيق مجراه، وظللت رهينة المعتقل ريثما تثبت براءتي... وأخيرا خرجت من المعتقل أجر ذيل الخيبة والألم. أبحث عن باب ألجأ اليه يعيذني شرور الحياة. ولم أستطع العودة الى بيت صاحبي اذ كان لم يزل في المعتقل. ويشهد الله انني حاولت بدوري أن أبرئه، ولكن العثور على رسائل صديق للجاسوس عنده كانت مبعث الشك فيه... وعلى أثر خروجي مشيت أتخبط كالضرير حتى استرعى نظري التفاف جمهور من الناس حول سيدة مرتمية على الارض في شبه اغماء، ولم تمر لحظة حتى تبين لي أن المرأة في حالة صرع يشتد ثم يفتر، والناس حولها يبتعدون خوفا اذا اشتد، ويقتربون ليتأملوها اذا هدأت... ولقد كانت بحق مظهرا من مظاهر مصائب الحياة التي تنتاب الإنسان فجأة، ويزيد هولها وجود ابنها الصغير بجانبها يبكي ولا يستطيع رد ما أصابها... وعز على أن يطول بها الحال والناس حولها يتفرجون كأنها ملهى أو تسلية طريفة، وفكرت في انقاذها فلم أجد وسيلة غير استدعاء الاسعاف، وبعد اسعافها تنبهت واستعادت وعيها، وكنت قد دنوت منها حانية عليها، فلما فتحت عينيها ابتسمت لي في اعياء شاكرة لي عطفي راغبة في مصاحبتي لها ان كان ذلك لا يضايقني، فلم أجد غضاضة في مصاحبتها راجية الله أن تساعدني على تفريج كربي... فلما استقر بنا المقام في بيتها أكرمتني وأحسنت ضيافتي، وشملتني بعطف وفير وحب حنون بعث في قلبي الطمأنينة والأمل، ثم أبدت رغبتها في أن أقيم معها كأخت صغري بعد أن صارحتها بحقيقة أمري، فاستجبت لها دون تردد لحاجتي وقتذاك إلى مأوى، حتى أبحث لي عن عمل أعيش منه وبادلتها حنانا بحنان وحبا بحب... وتفانيت في خدمتها، وشجعني على البقاء معها أنها أرملة وحيدة توفي زوجها تاركا لها

ولصغيرها ثروة طائلة... وعرفت ان سبب اغمائها في الطريق هو اضطرارها للمشي على قدميها حسب ارشاد الطبيب لما أصابها من ركوب العربة... فلما مشت وراق لها المسير قطعت شوطا بعيدا و نسيت انها ضعيفة البنية لم تتعود المشي فأصابها ما أصابها

ومنذ حللت بدارها أكرمتني في سخاء... وقدمتني لصديقاتها ومعارفها كأخت صغري كانت على سفر وقد عادت منه، وتركت لي حرية التصرف في البيت، وشملتني برعايتها الخاصة مهتمة بملابسي وزينتي تاركة لي حرية الخروج وحدي أو معها أو مع الصغير، وكثيرا ما كانت تتغيب طوال اليوم وشطرا من الليل.

وفي يوم ما حضر رجل قدمتني اليه باسم أختها، وقدمته لي كصديق ثم تركتنا وخرجت لانها كانت على موعد وأسرت إلى أن أجامل الزائر حسن ضيافته لأنه رجل عظيم ينفعها في كثير من المشاكل التي تحتاج للمساعدة... وقد أعجب بي الرجل، وبدأ يتردد علينا أكثر من قبل وشجعني على مبادلة عاطفته أنه لطيف كريم حلو الحديث، فكه الأسلوب مهذب الدعابة... وحاول خلال زياراته أن يقربني منه ويحببني فيه. ولما كنت مشغولة الفكر بالرجل السجين الذي أحببته حقا... لم أستطع مبادلته الحب مما اضطره إلى مصارحة صاحبة البيت بذلك... فلما خلت بي أخذت على جفوتي، ونصحتني باصطناع حبه وتمثيل دور المغرمة به ريثما ينتهي من انجاز الأعمال التي كلفته بها... وفي هذا الوقت تقدم لخطبتي عن طريقها شاب موظف ناشيء. وقد لاحظت انها تحاول أن تجمع بين زيارة الاثنين، وأفهمتني أن أستغل الرجل العظيم لتحسين حال الخطيب ورفع مرتبه، وبدأت

توجهني في هذا الشأن فكنت أتبعها كأنني مسحورة والحق أن عاطفتي بدأت تتحول رويدا رويدا إلى الشاب الناشيء لما كان يمتاز به من وداعة وتواضع، وصفاء نفس و نقاء سريرة، فلم يتكلف الثراء أو يدعي العظمة أو يسرف في تصوير عواطفه، بل كان يميل إلى الصمت والهدوء وقل أن يتكلم، واذا تكلم لا يعنيه الحب بقدر ما يعنيه شئون الحياة وأخلاق الناس... وكثيرا ما كان يأخذ على الفتيات اللاتي في مثل سني نزوعهن إلى تقليد النساء اللاتي يملن الى الترف والمتعة غير مبالين بكرامتهن وشرفهن، ولم أفقه يومئذ ما يرمي اليه بل اعتبرت هذا الحديث مجرد حديث عابر بل ظننت أبعد من ذلك... أنه يحقد على نساء المجتمع البارزات لانه لا يلفت نظر احداهن لفقره وبساطة مركزه.

وفي يوم ما دعانا الباشا المتصابي إلى حفلة بداره بمناسبة سفره الى الخارج لقضاء بعض شئونه... وصحبتني السيدة الى قصره العظيم... و كانت حفلة راقصة رائعة ولأول مرة تناولت الخمر ارضاء للسيدة التي وقفت بجانب الباشا تعاونه على اقناعي لمشاركتهم نخب توديعه ورجاء عودته بالسلامة... وشربت حتى ثملت... ولم أدر ما حدث غير أنني صحوت فوجدتني نائمة في مضجع الباشا، فلما أفقت مذعورة أحاطني بكثير من العطف والحنان، ووعدني بأنه سوف يتزوجني بعد عودته من أوروبا. وصارحني بأنه اتفق مع أختي وهو يعني السيدة التي أقيم عندها على أن يتزوجني، ومن أجل ذلك صرحت لي بالمبيت عنده وعاد. وأكد لي على مسمع منها بأنه سوف يعقد قراني ويعلنه بعد عودته من أوروبا... ووجدتني أمام الأمر الواقع، ولا حيلة لي غير الخضوع والتسليم بعد أن فقدت أعز ما تملك عذراء.

وعدت الى بيت السيدة (الأخت المزعومة) أحمل بين جوانحي هما وحزنا، وأفكر فيما عساي أن أقوله للشاب الذي خطبني، وعجبت كيف توافق هذه الأخت على خطبة الباشا بعد أن ربطتني بخطبة الشاب... وكيف هان عليها تركي في قصر الباشا وحيدة. وهي تعلم أنه ذئب جسور، وأمضني القلق وأضناني التفكير... وزاد بلائي عندما حضر الشاب وصارحني بأنه يترك على حرية الخيار إما أن أتزوجه في التو ويصحبني إلى بيته شريطة أن أقطع صلتي بهذه السيدة أو يتخلى عني غير مرتبط بعهد الخطبة، وفهمت من نظراته وثنايا كلماته أنه يخاف علي من الحياة التي أحياها.

وأدركت ما يرمي اليه... ولكني تباهت وأكدت له أنني لا أستطيع أن أغادر أختى الا اذا وافقت هي... فطلب معرفة رأيي بصراحة أولا فاذا وافقت على قبول الزواج في التو... أترك له التفاهم مع أختي... ولم أستطع أن أقبل طبعا لان الباشا طوق عنقي بطوق حديدي لا يفكه غيره وقد وعدني بالزواج بعد عودته... ولا بد من قبوله كارهة حرصا على سمعتي وشرفي... ولم يدر بخلدي أن سمعتي لم يعد لها أثر في سجل الشرفاء... اذ لم أكن أتصل الا بمن لا شرف لهم ولا كرامة... فلزمت الصمت وبصوت مخنوق قلت: الأمر لأختي.

واختلى الشاب بالأخت في غرفة مجاورة، وسمعت حوارهما، وروعني ما سمعته، فقد طلب الشاب منها أن يتزوجني لانه مشفق علي لبراءتي وخوفا على طهري من أن يمس بسوء من الذين يترددون على بيتها، وقال لها فيما قال: انه حرام عليها أن تعرض زهرة نضرة بكر الى اللهب المحرق... وأظهر لها استعداده لتهيئة حياة طيبة لي... وسكتت

الأخت لحظة... فعاد الشاب يلح ويرجو والا اعتبر نفسه غير مسئول عما يحدث لي في مقبل الأيام... وتكلمت الأخت... ولشد ما هالني قولها: وما رأيها هي؟ قال: انها فوضت أمرها اليك. قالت... لا مانع... تزوجها فاذا سعدت معها كان بها، واذا لم تكن لك كما تريد أعدها الي.

وتركها الشاب ليحضر المأذون وهنا لم أشعر بوجودي... اذ فقدت الوعي وأصبت بانهيار عصبي... اذ كيف أتزوج شابا بريئا بعد أن فقدت شرفي، وهو يعتقد انني فتاة عفة طاهرة؟

ولزمت الفراش والشاب يحوطني برعايته وحدبه، حتى مضت مدة اقامة الباشا في أوروبا... وأعلنت الصحف خبر مقدمه، ومع تماثلي للشفاء حرصت على مطالعة المجلات التي يحضرها لي الخطيب ليسري عن نفسي يوميا.

ولما أيقنت من مجيء الباشا... استأذنت أختي في الخروج لأتريض بعد شهرين أمضيتهما في العلاج فسمحت لي... وذهبت في التو لمقابلة الباشا... فقابلني في فتور وسألني عن أختي في ايجاز... ولما طلبت منه الوفاء بعهده والاسراع بعقد قراني اذ تقدم لخطبتي شاب ولا أستطيع قبوله بعد أن فقدت شرفي... ابتسم في دهاء وتناسى ما كان، ونصحني بقبول هذا الشاب الذي يلائمني، وقدم لي مبلغا من المال لاشتري لوازم العرس... وأدار لي ظهره و تركني لأخرج بعد أن سبقني إلى الخارج، ودون تردد تركت له نقوده وأنا في حالة إعياء أوشك أن يفقدني صوابي، وعدت إلى البيت أجر قدمي الخيبة المرة والهم الدفين وعاودني الانهيار... واضطر الخطيب أن يحضر طبيبا آخر

في وقت كانت أختي خارج الدار... وصارح الطبيب الخطيب بأنني حامل.... فلما أفقت من اغمائي وانصرف الطبيب... سألني الخطيب عن اسم الجاني... فسكت باكية... فتكلف الرفق بي، وظل يستدرجني حتى عرف كل شيء... فأطرق مليا مفكرا... ثم تركني دون كلام وخرج.

وبعد أيام علمت من أختي المزعومة أنني جنيت على الشاب بسوء تصرفي، اذ زججت به في السجن، واتهمتني بأنني دفعته الى تهديد الباشا بالقتل إن لم يتزوجك... مما أدى الى أن يطلب الباشا حمايته منه.

ولما صارحت الأخت بما يتحرك في أحشائي لم تظهر أي استياء أو هلع كما كنت أتوقع، وطمأنتني قائلة أن الأمر أهون مما أتصور ووعدتني بانقاذي في الوقت المناسب... وبدأت حياتي التعسة بعد أن ضاع تاجي الذي كنت أفخر به، وضاع معه الامل في الزواج، وفي ساعة يأس روادتني فكرة الانتحار لأستريح إلى الأبد... فلما عرفت الأخت سفهت الفكرة وهونت مصابي... ولا أكتمك انني اعتزمت أن أعيش رغم ذلك شريفة ولكن الأخت كانت متفننة في تيسير الحياة العابثة، فاذا تغلبت على اغراء رجل، أسلمتني إلى خديعة رجل آخر. وكم للرجال من أفانين في هذا السبيل... انهم يرتمون كالحشرات تحت أقدام المرأة تحقيقا لمآربهم الدنيئة... ولست أدري أيهما السيد... الرجل أم المرأة؟ قد يبدو للناس ان المرأة هي الآمرة الناهية وفي الواقع الرجل هو الآمر الناهي بأسلوب الخداع والتضليل... انه

يشرب دمها ويهتك حرمتها كالصائد. الذي يجري وراء الفريسة فاذا ما نالها بعد جهد واعياء ذبحها ليأكلها كي يسترد قوته وحيويته.

وسكتت المريضة لتجفف دموعها الحارة، ثم استطردت بصوت تخنقه العبرات: ليت الله حلل لنا الموت اذا عفنا الحياة لنهرب من الفسق والضلال على الاقل··· ليت··· ولكنه قدر علينا المقاومة لأمر لا ندريه. آه كم ليلة قضيتها باكية نادمة أذرف الدمع السخين بقلب مقروح بعد ليل أقضيه تحت أضواء الشموع الكاذبة··· أقاوم اغراء هذا بالبلاهة··· وأغالب أهواء ذاك بالتمارض··· وأصارع خديعة آخر بالخداع··· آه لي الله -

ثم تنبسط أسارير وجهها كأنها تعود إلى ذكرى ذلك اليوم و تقول: وفجأة طالعتني احدى الصحف بخبر الافراج عن صاحبي المسيحي اذ ثبتت براءته، ولا أكتمك انني شعرت بارتياح شديد، وأحسست أن نافذة من نور الأمل فتحت لي··· فأسرعت اليه لأهنئه، فقابلني بترحيب بالغ وشوق أكيد، وسألني عن أحوالي و كيف أمضيت أيامي؟··· فادعيت ما استطعت أن أدعيه دون أن أكشف عن حقيقة ما مر بي، وقلت انني لجأت إلى قريبة لي أكرمتني وما زلت أبحث عن عمل.

ويبدو أنه رآني على غير ماعهد. وبدا على وجهه أثر احساساته الطارئة هل يكذبني أم يصدقني؟ أما أنا فقد أطرقت لاخفي ظلال الخوف والانفعال النفساني الذي سيطر علي··· وقال: أراك تعبة مكدودة كأنك أمضيت الليالي الطوال ساهرة··· ودون تفكير قلت··· لانني كنت أفكر فيك··· وقد أكون قد بالغت في هذا التصريح، ولكنني في

الواقع كنت أختلس النظر اليه لافكر فيه حقا. وسكت لأرقبه من طرف خفي لأرى أثر كلامي في نفسه وهو صامت يتأمل لمحاتي التي كانت تتغير من حيث لا أدري بتغير الصراع القائم في نفسي بين الخوف والكذب الذي اضطررت اليه. وأظنه شعر أنني كاذبة فقال: لا تقولي كل الوقت بل قولي بعض الوقت... فتكلفت بسمة وأنا أقول: صدقني ثم غير مجرى الحديث قائلا: والآن علام عولت؟

قلت:

ليمضي الله في بقضائه.

قال:

يسرني أن تعودي إلي ونعيش سويا كأخوين أو زوجين كما تريدين.

ووجدتني دون تفكير أستجيب لدعوته وأرتضي العيش معه على أية صورة، فلن تكون أكثر سوءا مما كنت عليه على أي حال... ومرت الشهور وبدأ الحمل يظهر بوضوح... وكان الرجل لم يمسني قط متعمدا أن يروض عواطفي، تاركا للزمن خضوعي له وقبوله زوجا... ولاحظ ظاهرة الحمل، فسألني في خجل مترددا على أمل أن يكون مرضا ألم بي... بل بالغ في تقديسي فظنه انتفاخا في البطن نتيجة مرض خبيث، وصارحني بأنه مضطر لاستدعاء طبيب للكشف علي مظهرا استعداده للتضحية مهما كلفه الأمر العلاجي... فرفضت وراح يلح ويرجو ويهون على الداء، وحيال رفضي فاجأني بالطبيب في البيت، فأبيت وأغلقت باب غرفتي علي... وسمعت الطبيب يسأله عن

أعراض العلة فلما وصف له ما أعانيه... القيء وكثرة النوم وارتفاع البطن... أكد له الطبيب دون أن يراني... أن هذه هي أعراض الحمل، ولم يصدق الرجل ودافع عني، وأقسم له أنني لم أزل بكرا.

ولما خرج ليودعه عاد إلي بعد أن فتحت باب غرفتي. وأطرقت مفكرة حائرة بين رغبتين هل استمر في التضليل به لاحتفظ بحبه وثقته، أم أصارحه وأفقده وأستريح وأتر كه لغير رجعة؟ ولزمني الوجوم وانهكني الانفعال فغفوت... وهنا تركني وخرج ليقضي بعض مهامه. ولم أكد أشعر بخلو البيت منه، حتى تنبه ضميري، وعز على أن أفقد آخر خيط يربطني بالطهر والقداسة، فتمنيت الموت... الموت قبل أن أفقده للأبد... قد يعرف بعد تشريح جثتي... وقد يحتقر ني... ويكرهني... ليكن... لا أريد أن أراه كارها... أو أشتم رائحة احتقاري من أنفاسه وأسمع كلمة طردي من بيته... بعد أن سعدت بحبه واجلاله... وفي ثورة نفسية ألقيت بنفسي من النافذة قبل أن يعود.

وها أنذا كما ترين... محطمة القلب والنفس، ولم يبق في جسمي غير هاته الحطام التي أرجو الله أن يقضي عليها بالموت جميعا.

وهنا استطاعت الأخت أن تقاوم انفعالها و تغالب ما ألم بها فقالت: هذه مشيئة الله وجففت دموعها وهي تسأل: هل عرف؟ فأجبتها... أجل عرف كل شيء... وحضر لزيارتي... وترفق بي وعاهدني على كتمان سري وعدم افشائه لأي مخلوق، وأفهمني أنني أخطأت... اذ لو صارحته لتدارك الأمر وعالج الموقف وأصلح شأني، ومرت الأيام والأخت عاكفة على زيارتها في المستشفى... وبينما كانتا تتحدثان عما

يخبئه المستقبل الغامض للمريضة... دخل الرجل، فقدمته الأخت المريضة إلى أختها... وهنا انتهز الرجل الفرصة وطلب يدها منها قائلا انها ضحية... ضحية أخ عاق جاحد لا قلب له، وزوج أخ شريرة فاسدة لم تمس الرحمة روحها وا أسفاه. غفر الله لهما... أما هي فلا أظن أن الله سيأخذها بذنوبها التي سبقت اليها مرغمة كما تساق الشاة لقاء العلف... وتم للمريضة الشفاء، ولم يكن بد من موافقة الأخت على زواجهما بعد أن تأكدت من اشهار اسلامه، وأخيرا لم تجد الأخت الكبيرة لها مكانا في ضجيج المجتمع بعد أن عافت نفسها أضاليله... فسحبت وصاية أخيها العاق، وأقامت زوج اختها وصيا... وودعتهم لتعود الى الناسك.

وعادت اليه، فوجدته يدعو الله أن يلقاها قبل أن يموت، وبعد أن أفضت اليه بمأساة أختها سألته: أيمكن أن يكون اعتناق زوج أختي للاسلام صحيحا...؟

فقال الناسك بصوت هادىء كأنه يناجي نفسه: كم من أناس يعتنقون الاسلام سرا أو جهرا ويشهدون بوحدانية الله ورسوله وقلوبهم عامرة بالاسلام... فلعله من هذا الطراز يا ابنتي... قالت: أعتقد هذا اذ لو كان غير ذلك لتنحي عنها بعد فضيحتها... وسكت الناسك لحظة ثم عقب... ربما... الله علام الغيوب وعنده وحده أسرار القلوب... قد يكون مؤمنا حقا، فكم من أناس ينتسبون لدين غير دين محمد (صلى الله عليه وسلم) ولكنهم يؤمنون بالله ورسوله، ويقيمون الصلاة والصوم والزكاة خفية وعلى وجوههم نور الايمان...

كم في الحياة من أسرار وراء مظاهر الأديان... أن الأديان جميعا تتنافى مع الرذيلة يا ابنتي.

وهنا مر بذهنها خاطر فنظرت اليه باسمة قائلة: هبني من دين يخالف دينك... أتشملني بما شملتني به منذ عرفتك؟ و خانه حرصه فقال: إذا كنت أحببتك فقد احببتك لله. و كأنه مس قلبها بيد ساحرة فاقتربت منه في فرح وهي تقول: كم أنا سعيدة بحبك... فتدارك صراحته وقال بهدوء... اني أفترض ذلك... المهم أحب أن أؤكد لك أن عطفي عليك لا يتبدل ان كنت تنتمين إلى ديني أو إلى أي دين يخالف ديني. فتمسكي بدينك على أية صورة كان، وافهمي نصوصه واعتنقي دستوره فقد جعل الله الفضيلة دستور الأديان جميعا، فحذار أن تلوذ بالفرار من دينك لاجلي أو من أجل أي كائن. كوني كما أنت... المهم آمني بدينك ايمانا قويا صادقا... والله يشهد أني أمنحك البركة على أي دين كنت. فاذا كنت يا ابنتي... ولم تدعه يتم كلامه فقاطعته... لقد جئتك حلية القلب والروح من الايمان... حقا أنا مسلمة... بالوراثة وكنت لا أفهم من معاني هذا الدين غير ما يعرفه العامة المنصرفون عنه... فلما جئتك وقضيت معك الوقت الذي قضيته، أحسست بأن نورا علويا يجتاز جنبات نفسي، وأن مسا من الصفاء رقيقا يشمل روحي فلا أحس بالمشاعر التي يشعر بها الناس ازاء أي لون من ألوان الحياة المحببة المشتهاه... انما أحسست بفيض من النور يغمرني ودفء روحي يطمئنني أما لماذا؟ فلا أدري مبعث ذلك، وان كنت أدرك في قرارة نفسي ان الله اراد بي خيرا اذ هيأ لي فرصة، ولتكن من أي لون، المهم أنت أنت في الواقع القنطرة التي ساعدتني على العبور لكي أصل إلى معرفة الله، وهي غاية ليس بعدها

غاية. وأعتقد أنه كان يجب أن أصل إلى هذه الغاية سواء أهديتني أم لم تهدني... أي والله... أعتقد أن الله غفر لي منذ جئتك وقد لمحت فعلا بشائر هذا الغفران من النور الذي رأيته وأحسست به وتخللت اشعاعاته كياني و كل مشهد يحوط بي... أنه نور فوق النور... يملأ قلبي بالنور وعقلي بالمعرفة... فأدرك في قوة... فاذا اغمضت عينيي على هذا النور أحس بأنه ملأ عينيي وخواطري وجوانحي، وأن كل خلجة من خلجاتي وخفقة من خفقاتي تذكر شيئا فوق لغتي و تعبيري وأنا لا أدري فلا أعرف انسانا يستحق ذلك، وأري شعوري فوق شعور المحبين الوالهين... فأعود إلى أعماقي وأناجي النور الذي يملأ صدري بغير كلام ويبعث الأمل حلوا فأراه مرسوما على كل مرأي؛ وتبلغ مسمعي ألحانا على غير وتر الأنغام... ولقد فهمت الآن أن هذه اللغة الصامتة هي التسبيح والاستغفار الذي كان ينطق بهما وجداني، في جنح الليل أو في وضح النهار يوم كنت مسوقة إلى مبادلة الناس السمر بلغة تعافها الطير وتأنف منها الأزهار

كان ينقصني التعبير أو قوة الادراك لاعرف أن الله يتكلم في اعماقي بلغة تسمو فوق ادراكي. كنت في حاجة إلى الشفافية لأتقرب إلى الله... كنت غريقة في محيط لا قرار له وتائهة في دنيا غير مدركة... ولولا ايماني العميق الدفين... لما نجوت و تبت، ولولا استعدادي للتوبة ما وجدت في صدري مكانا لما تقوله أو في اعماقي متسع لهذا الايمان... الآن أستطيع أن أؤكد لك أنني بفضلك فهمت ووعيت تماما ايماني واسلامي. وأصارحك أنني كدت يوما أكفر بالله عندما كنت أجتاز أشد أزمات حياتي لولا أن الله أراد بي خيرا... فالتقيت صدفة برجل متصوف وسألته يومئذ السؤال الذي كان يشغلني. هل

الله موجود؟ فقال الشيخ: قبل أن أجيبك أسألك، من الذي حاك جلبابك؟ قلت: حائك قال: اذن لابد من صانع لكل شيء... فمن أذن صنع الدنيا والناس وكل ماظهر على الأرض ولاج في السماء؟ لا بد من صانع عظيم لا مثيل له... هذا الخالق الأعظم هو الله، اذن لايمكن لأي مخلوق مهما بلغ من العبقرية والنبوغ، أن يخلق ريشة طائر أو حشرة سامة فما بالك بخلق الانسان! ان كل ما يأتي به الانسان من عجب واختراع في هذه الحياة... من صنع الله لا من صنع نفسه... وهنا اقنعني هذا الجواب فلم أطلب مزيداً. وجدتني أسبح بحمد الله وسكتت لتتنفس الصعداء في ارتياح وطمأنينة... بينما قال الناسك: أنت قديسة يا ابنتي... قديسة أي والله... أنت النور الذي انبثق في حياتي بعد ظلام دامس كان لا ينيره الا نور ايماني... كنت أرى الله وحدي فلما رأيتك ترينه كما أراه تخيلت النعيم في الجنة أضعاف ما كنت أراه... ولزم الصمت ليتأملها في خشوع ورهبة كأنها حرم مقدس أمامه... بينما ابتسمت المرأة ابتسامة طاهرة كطهر ايمانها التي شعرت به حقا، وغمغمت بصوت ساحر. حفظك الله لي... وسكتت لحظة ثم عادت تقول... لكن لماذا نقضي على أنفسنا بالحرمان المطلق وفي وسعنا أن نوفق بين الدين والدنيا وأن نجمع بين الروح والمادة لنؤدي رسالة للحياة قد تكون أجل وأعظم، نعبد الله في أي مكان فهو فيه.

ودنت منه في حنان مردفة... ما الذي يمنعك من الذهاب الى المدينة لتعمل بمالك وجهدك وقواك عمل الرجال المكافحين في سبيل الله والوطن والدين... وأنا مستعدة أن أقف بجانبك على أية صورة، أتريدني أن أكون امرأة صالحة عاملة؟ وسكتت لتسمع رأيه... فلم

يتكلم وأطرق مفكرا ثم رفع رأسه ليقول لها: دعيني أفكر... ثم تركها مكانها ليتجول خارج محرابه كي يخلو إلى الله يسأله العون والتوفيق لما برضيه، في حين ظلت المرأة جالسة مكانها، وقد نسيت ماضيها بما تلمحه من نور قدسي يجتاز جنبات صدرها، متغلغلا في أعماقها كأنه نسيم يفوح شذاه أو كأنه نسمة من سمات الجنة فتشعر بأنها انسانة جديدة لها طهر الملائكة وجمال الحور.

ويخيل اليها أنها في حلم لذيذ لا ينبهها منه الا يقظة مشاعرها التي تحمل اليها همسات أثيرية تفهمها باحساسها العميق، فتود لو كان لها من المقدرة ما يمكنها من التعبير عن مشاعرها في هذه اللحظات، وما ترجوه من أمان كبيرة تتوق الى تحقيقها نادمة على عمرها الذي مضى في ذمة الأوهام.

وهنا يعود الناسك اليها فيلمحها سارحة حالمة فينبهها: فيم تفكرين يا ابنتي؟ فتقول في التو... كيف كنت أكون لو قضيت ما مضى من عمري سعيدة بهذا الايمان والشعور الصافي... لم تعد الأحزان والمآسي تعرف طريقها إلي... كل شيء أراه الآن بهيجا بديعا ساحرا، فيه نشوة وفيه دفء، يبعث على الطمأنينة والارتياح.

ثم تقترب منه في حنان مردفة، ليتني أستطيع تصوير هذا الجلال، ليتني مصورة بارعة وشاعرة مفتنة، لو كنت، لطالعت الناس بأجمل آيات الفن تصويرا أو شعرا، ثم تسحب يده بين يديها في حرارة وهي تقول بصوت رقيق ينم عن سعادة نفسية حقيقية، اذ طاف بذهنها خاطر جميل... لن أناديك منذ اليوم بأبي، فأي اسم محبب اليك أخلعه عليك...

نخرج من تفكيره: كل مناداة منك جميلة محببة إلى مسمعي، فعادت تقول، يا حبيبي هل في الحياة سعادة غير هذه السعادة؟ أهناك متعة روحية أكثر مما تمتع بها الآن؟ أهناك أمنية أسمى من أمنية القلب المخلص لله لاسعاد من يهواه... ثم رفعت وجهها الى السماء مردفة

يارب لم تركتني ضالة في عالمك فيما مضى من عمري؟ لم لم تقيدني بنورك القدسي منذ خلقتني؟ يارب، لم تركتني أسير في طريق شائك تناوئني فيه أعاصير الضلال؟ ثم تسكت لتجفف ما انهمر من دموعها الحارة مستطردة: لو أنك يارب فتحت لي بابك القدسي لكنت اليوم قد قطعت شوطا أبعد مدى ممن سبقوني من المؤمنين والمؤمنات!

ويقبض الناسك على يدها في عطف أكيد اذ يحس ان الجو بدأ يتندي برطوبة ليل الصحراء فيخاف عليها قائلا: أحمد الله يا ابنتي على توبتك في النهاية. هيا تناولي هذا الزاد البسيط، ثم نامي مطمئنة قريرة البال... ولكنها ظلت واقفة أمام باب الكوخ فعاد يقول... أخشى عليك رطوبة ليل الصحراء فقالت: لا تخف أن دفء روحي بايماني كاف لتدفئة رطوبة الدنيا لو تعرضت لها، فاطمئن... ولكن طمئني اذا شئت... أترى في قلبك متسع لي؟ وهل ارتضيت أن أعيش بجوارك؟ وهل ستوليني عاطفة تدنيني من الحياة الرضية؟ أم مجرد عطف سوف يكتسحه زهدك بعد حين؟ أشعرني أنني مغمورة بفيض واقعي حقيقي لا بحلم سوف يتلاشى مع تباشير الفجر الجديد... أخشى أن أكون حالمة.... أثبت لي أنني في غمرة من الحس الرفيع حقا... وبجوار رجل اتخذته من دون الرجال مرشدا ومعينا.

وهنا سحبها إلى داخل الكوخ وهو يقول: نامي مطمئنة القلب والضمير... ستعيشين بجواري حتى نهاية أيامي اذا شئت... سعيدة راضية محبوبة آمنة.... لقد استخرت الله يا ابنتي... وهو وحده ملهمي... سنذهب معا، إلى المدينة و نعيش هناك أيضا لله وللدين والوطن فاطمئني... و نامي.

ثم تركها بعد أن مر بيده على رأسها كأنه يباركها، وانسحب في هدوء كما تنسحب ظلال الأحلام الجميلة وسط اشعاعات من الأضواء الذهبية التي تداعب مشاعر السعداء الآمنين. واختلى بنفسه ليفكر فيما عساه يفعل ليبدأ حياة جديدة.... ومر بذهنه ذكرى الأسرة الفقيرة التي يعولها خفية.... ورأى أن واجبه يحتم عليه أن يعينها بقدر ما يكفل لها حياة طيبة، وانتهز فرصة نوم المرأة وتسلل إلى مخبأ نقوده، وأخذ ما أراد أن يأخذه و نام خلف كوخه حتى نبهته خيوط الفجر البنفسجية التي تحمل من النور صفاء اليقين ومن المساء نشوة الهدوء الكمين، فصلى ثم أخذ طريقه حيث أراد.

ووزع المال على الأسر التي كان يرعاها، موجها رب كل أسرة إلى استغلال المبلغ الذي منحه اياه فيما يدر عليه بربح يحفظ لأسرته طمئنينة الحياة.... وفي طريق عودته راح يتصور المستقبل الجميل الذي ينتظره مودعا الصحراء بما فيها من روعة ونقاء متخيلا الجمال الذي يفتح له ذراعيه بعد أن وحد الله بين قلبه وقلب التائبة وبعد أن باركهما ومنحهما السعادة في أبهى صورها، متصورا آفاق دنياه الجديدة تحمل ومضات السحر والجمال، مجسمة في كل لمحة من لمحات هذه المرأة التي بعثها الله اليه، لتخرجه من عالم الوحشة والوحدة

والعبادة المحصورة بين أركان أربعة الى عالم غير محدود مليء بالأنس والبهجة والعمل والعبادة على أوسع نطاق... ويتغير لون الأفق وتلونه غيوم طفيفة... فيتغير تفكيره معها ويساوره شك وحيرة، ويتساءل، أتراها صادقة مؤمنة تائبة حقا أم تراها كالأخريات؟ وتظل الهواجس تتلاعب به سوداء آنا وصافية أحيانا ثم يستعيذ من الشيطان ويغمغم... ان المرأة نزاعة للفضيلة بطبيعتها، وان الفضيلة هي الأصل فيها، ويقينا لو عاشت في كنف من يحميها لظلت طاهرة عفة.... ثم يستسلم لجاذبية المرأة ويقع تحت تأثير جاذبية روحها فيشعر بالراحة والطمأنينة والسعادة التي تسللت إلى نفسه تحمل نسمات معطرة بشذى ساحر ناعم كرقة أريج البنفسج.

وقبل أن يبلغ كوخه يلمح عن بعد جماعة يتشاجرون من أجل اقتسام مبلغ من المال، ويفهم من حوارهم أنهم سرقوه، فيتدخل بينهم باللطف والكياسة، حتى يأنسوا اليه ويرتضوه حكما بينهم ليقسم المال قسمة عدل بالتساوي.... ولكن السارق الذي اقتحم البيت وتعرض الموت يطلب المزيد.... وترضية له يعده وعدا أكيدا بأن يعطيه مايريد من عنده... وبعد أن قام بمهمته، أمرهم أن ينتظروه، ريثما يعود اليهم بالمبلغ المطلوب... فاستجابوا وانتظروا.... ولم يكد يتركهم حتى قال أحدهم.... يبدو أنه من كبار الأغنياء هنا.... فقاطعه أحدهم، لا أظن، أن ملابسه تدل على أنه فقير مسكين. فيعقب آخر: قد يكون بخيلا على نفسه ليبعد الشبهة عنه. وقال غيره... لو كان بخيلا لا يمكن أن يضحي بمليم في سبيل ترضية غيره... وقال من وعده.... ولماذا نضيع الوقت في الظنون ((الميه تكدب الغطاس)) على أن أتبعه لأرى ان كان صادقا أم من الكاذبين، فقد تكون حيلة لينهي عراكا

ويذهب لغير رجعة. فأمن الجميع... وتبعه... ووقف يرقبه بعد أن دخل الكوخ.... ولم تمض لحظة حتى خرج الناسك واخذ طريقه اليهم... وقدم المبلغ المطلوب لصاحبه الذي أسرع لينتظره: ولما غادرهم... أيقنوا أنه ثري اتخذ هذا الكوخ خباء لثروته.... وفكروا في طريقة للاستيلاء على الثروة... وبعد أن أبدى كل منهم اقتراحه استقر الرأي النهائي على مداهمة الكوخ بعد أن رسموا خطة شيطانية للتنفيذ.

وعندما سجى الليل وشمله السكون الرهيب، و نام الناس، وهدأت الطيور في أوكارها، وبدت سماء الصحراء كغلالة رقيقة سوداء لم يظهر فيها غير ومضات النجوم المتناثرة كحبات الماس الأصيل على صدر زنجية حسناء.... وسرعان ما ترامى إلى الناسك صوت استغاثة رجل تخالطها أصوات مشاجرة عنيفة وخرج الناسك يجري مهرولا نحوهم، فاذا بأحدهم ملقى على الأرض في حالة إغماء... وشغل الناسك بتنبيهه وهم ملتفون حوله يفتعلون المشاحنة والسباب والتقاتل.... بينما انسحب اثنان منهم لاحضار ماء من أي كوخ قريب وفي نيتهما الاسراع إلى كوخ الناسك للبحث عن الثروة.

وقال أحدهما عندما رأى المرأة النائمة على ضوء مصباح زيت ضئيل... وقد بدت كأنها العذراء أشعل حولها القنديل علامة التقديس... وربع الرجلان وشعرا برجفة كادت تردهما عن غايتهما لولا أن استجمع أحدهما قواه وقال هامسا: أظنها زوجته.... فقال الآخر: ولم لا تكون عشيقته أحضرها هنا بعيدا عن الأنظار وخوفا من افتضاحهما.... وعاد الجريء يقول: لا تضيع الوقت دعها

نائمة.... ابحث.... وراحا يبحثان... وشعرت النائمة بحركة، ففتحت عينيها وهي تغمغم بصوت خفيض يغالبه النوم.... أما زلت ساهرا يا حبيبي؟... واختفى الرجلان لكيلا تراهما.... فسكتت وغلبها النوم فعادا إلى البحث وكانت نائمة بالقرب من الحجر الذي وضعت تحته الثروة... وقال أحدهما: حرك هذا الحجر عله صندوق حجري... ولمس الحجر فحذها فتنبهت.... وقامت مذعورة فوقع نظرها عليهما.... وادركت انهما لصان، وأوشكت أن تفقد وعيها من فرط الهلع وأخرست المباغتة لسانها فسكتت مستسلمة لقبضة يد الرجل الذي هزها في قسوة وتوحش قائلا.... أين النقود؟.... إن زوجك أو عشيقك رهين هناك ريثما تسلم للقابضين عليه النقود الموجودة هنا بناء على أمره.... فقاومت اضطرابها واستجمعت وعيها وقالت.... انكم مخدوعون.... أنه رجل مسكين فقير زاهد يعيش على ما يجود به المارة عليه، وهو لا يقبل غير الزاد الذي يمسك به رمقه. وهنا تنبه أحدهما وهو يحملق فيها... آه لقد تذكرت، ألست أنت المرأة التي أرسلك رئيس عصابتنا الى الشيخ لتعرفي سره منذ شهور؟.... لقد أخبروني بأمرك بعد أن عدت من مهمة ما.... آه لقد تذكرت.... هذا هو الشيخ الولي وهذه أنت كما وصفوها لي.... لقد وعد رئيس العصابة بمنح مكافأة لمن يدل عليك.... آه لقد حانت فرصتي الذهبية.... وها أنت تعيشين معه بعد أن ضللت الجماعة لتنعمي بثروته وحدك.... ثم لطمها لطمة حادة فارتمت على الأرض وهو يقول.... أين الثروة يا خائنة؟... وأراد زميله الذي التحق بالجماعة حديثا أن يغير أسلوب القسوة فتكلف اللين وهو يقول.... علها امرأة أخرى.... فلا داعي للقسوة.... على أي حال انتظر.... لا تكن قاسيا. ولكن اللص عاد يؤكد له أنها هي كما وصفوها تماما له.... وكان الناسك

عندما رفع الحجر ليأخذ قدرا من المال لم يحكم وضعه على الحفرة لكيلا يمسها وهي نائمة فبان ثقب ضئيل من الحفرة

فلم يكد الرجل يقرب النور من الحجر حتى بان الثقب... قال فرحا... هنا... هنا الثروة... ورفع الحجر فبان بريق الذهب... وصعب على المرأة أن يسلبا ثروة الناسك على مرأى منها، فانتهزت فرصة انشغالهما باخراج الذهب... واختطفت مسدسا كان بارزا من جيب أحدهما وصوبته نحوهما مهددة قائلة... اتركا الذهب واخرجا حالا والا نزلت عليكما لعنة الله فانه ولي صالح...

وظنت المسكينة أن ذلك يكفي لردهما، وفاتها أنه من الصعب عليها مقاومتهما. وهنا انقض عليها أحدهما وألقاها على الأرض و كمها وشد وثاقها لكيلا تتحرك

ثم ساعد رفيقه في الاستيلاء على الذهب... وقبل أن يغادرا الكوخ قال أحدهما لرفيقه: انتظر ريثما أقضي عليها لكيلا تكشف أمرنا... فاعترض الآخر. وهنا فوجئا بجماعة تعودوا المرور على الناسك يوميا ليحملوا اليه زاد اليوم التالي من المدينة، وهم من التجار الذين يسيرون على الأقدام لفقرهم، ويعيشون على ثمن الزاد الذي يقدمهم اياه كرأس مال لما يتاجرون فيه كل يوم. ولشد ماهالهم رؤية المرأة على صورتها المروعة... فطوقوا الرجلين لكيلا يفرا، ثم فكوا وثاق المرأة، وصموا قبل أن يعودوا إلى مقرهم أن يطمئنوا على الناسك الذي أحسن اليهم ليردوا اليه الجميل على الاقل، واستعانوا بالرجلين على معرفة مكان الناسك... فاضطرا إلى ارشادهم فلما بلغوا مكان العصابة التي طوقت الناسك ريثما يعود اللصان فكوا وثاقه، وعادوا به

إلى كوخه بعد أن استردوا الثروة وسلموها للمرأة، وقد بقي منهما اثنان لحراستها... وعرفت المرأة من حارسها ما بذله الناسك من خير في سبيل الله لتوفير معيشة هؤلاء التجار لكي يحيوا في طمأنينة... وازداد ايمانها وأيقنت أن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا في الدنيا وفي الآخرة.

في هذا الوقت رأى أحد التجار سيارة، فاستوقفها ليركبها كي يتصل بمقر الشرطة وتم ذلك سريعا وقبض على العصابة... وعاد الناسك بعد أن ألقت الشمس وشاحها الفضي لتكسب الدنيا حيوية وجمالا... ومر على عين الماء القريبة من كوخه فتوضأ وصلى شكرا لله على نجاته ونجاة التائبة ووجد الباب مفتوحا فدخل وقد راوده الفزع خوفا من أن تكون المرأة قد أصيبت بسوء، ولم يكد يراها أمامه حتى عاد اليه بشره وشكر للحارسين أريحيتهما ونبلهما، وخرج الرجلان ليلحقا برفاقهما قبل أن يأذن لهما الناسك بالانصراف، اذ كان مشغولا بسحب مبلغ من المال ليقدمه لهما ولرفاقهما. وبعد انصراف الجماعة تذكر أنه لم يسلمهم المبلغ الذي تعود أن يسلمهم اياه.

واضطر أن يلحق بهما ليقدم لهما المبلغ، وحينئذ كان نفر من جماعة اللصوص قد استطاع أن يهرب ويختفي عندما داهمهم رجال الشرطة...

وظل متربصا قريبا من كوخ الناسك فلما رآه خارجا... أسرع ليداهم المرأة... وقبل أن تصرخ وتستغيث قتلها. وبينما كان يبحث عن الثروة اذ لم يكن يعرف مكانها بالضبط سمع وقع أقدام تقترب، فحاول الخروج، ولكن الناسك داهمه وقام بينهما عراك. وحاول اللص أن

يقتل الناسك الذي راح يقاوم جهد المستطاع متحاشيا قتله مرددا... لا أريد أن ألطخ يدي بدم روح خلقها الله... عد الى الله يا رجل.... عد الى الله يا رجل.... وظل يردد ذلك.... حتى أرخى الرجل ذراعه وارتمى على الأرض في اعياء وهو يقول.... لقد قتلتني بغير سلاح ايها الشيخ.... ثم بكى كالأطفال وهو يغمغم.... أحمد الله لقد قتلت الشر في نفسي.... وتبت الى الله.

وهنا رفع الناسك الحجر، وخاطب الرجل قائلا، وهو يشير إلى الثروة.... خد كل ما تريد يا رجل.... أو خذها كلها فلم يعد لي بعد اليوم مأرب.... لقد ماتت... وتنهد في تحسر ومرارة وهو يغمغم.... ومات معها كل أمل... الا الأمل في لقاء وجه الله...

وعاد يتحسسها عسى أن يكون في حياتها بقية من الأمل فطالعه العدم من عينيها ومن أطرافها ومن قلبها الصامت صمت الفناء... و ارتمى عند رأسها يبكي بكاء لم يبكه من قبل... وشعر بأنه تحول في هذه اللحظة من انسان كان يجمع آمال الدنيا كلها في قبضته الى انسان لم يعد يملك من أمر نفسه شيئا.... وسرح في تحول التائبة المفاجئ.... وتضاءل تفكيره الواسع حتى لم يعد له أي أثر في الوجود كما تحولت التائبة - في لحظة - من الحرارة الحية والانتعاش الدافئ الى برودة جاثمة فوق جثمان كأنه صيغ من الجليد، وكأن دم قلبه قد سال مع دمها عندما أريق... وغمرته أحاسيس جياشة فيها حرارة الالم القاتل مشوبة ببرودة اليأس المميت.... اليأس الخاشع لرهبة الموت والخضوع المطلق لمشيئة الله.

وخيل اليه وهو مأخوذ بأحلام اليقظة التي ولت... انه من الجائز أن تكون غافية.... ناداها... فجاوب العدم نداء الحياة فاذا بها لوعة يخيب معها كل أمل...

نقلها من الأرض، وحملها بين ذراعيه لتستريح راحة الأبد على صدره الذي كان يأمل أن تستريح عليه لتهنأ بعد شقاء... وتسود بعد مذلة.... ونسي وجوده بموتها، فظل على حاله مأخوذا مسحورا بأحاسيس دامعة بغير دموع صارخة بغير صوت.... وسرح بتفكيره و حسه فيما وراء الموت، وهل يا ترى يلقاها ويجتمع بها بعد أن يلحق بها في الدار الآخرة؟ وينسى الميتة، وينسى نفسه مستغرقا بوجدانه في أعماق الموت.... وأخيرا... يوريها التراب مبللا ثراها بدموعه الحارة، ثم يشيد لها مقبرة بيده يكتب عليها اسم « الشهيدة التائبة » ويغرس حولها أشجارا وارفة لتكون خميلة تحمي أفنانها الظليلة الرائح والغادي من الحرارة والصقيع، متخذا بجوارها مقرا لراحته و قبلة لصلاته...

يقضي شطرا من النهار يسقي الأشجار، وينثر فوق القبر الورد و الأزهار مناجيا اياها كلما أمسى الليل، كأنها لم تزل حية تستمع إلى تحنة بصوت يترامى في مسمع الساري من بعيد كأنه مناجاة ملك لملك من الأطهار الأخيار.

وبعد مدة أثمرت الأشجار فدعا المارين لاقتطاف الثمر رحمة و نورا على روح الشهيدة...

وعندما كانت تهجع الناس وتنام يظل يقرأ القرآن على قبرها آنا، ويتخيلها في جميع الصور التي مرت به منذ رآها، وتمر به الأخيلة

سريعة خاطفة غير مشهد جثتها الهامده اذ لم تكن كجثث الأموات...

كانت كأنها نائمة، على وجهها نور امتد شعاعه حتى بدا كأنه يتصل بالله... نور يأخذ بالقلوب والابصار اذ فيه اشعاع فوق الاشعاع... وقد يسحبه الخيال الى ما وراء الموت فيراها سعيدة في الدار الآخرة تنعم بحياتها الثانية نعمة تتجلى على وجهها نورا وبشرا وحيوية، كأنها لم تعد تتصل بالفناء المخيف المزعج...

وقد يحلو له الرقاد بجانب قبرها فيرقد وهو مأخوذ بسكون الموت، ثم يغفو اغفاءة الساهد فيتخيلها نائمة أو غافية تحت تأثير نشوة روحية عالية... فيطيب له مناجاتها فيناجيها...

لماذا ذهبت هكذا، قبل أن أتنسم عبير أنفاسك التي تفوح بشذى قلبك الذي أخاله بنفسجة عطرة؟... افتحي عينيك لأرى نور الحياة العليا... اني أرى النور العلوي يعانق قلبك، وأرى الشفق مزدانا بورد خديك...

انك مازلت تعيشين في خاطري كما كنت... ولم ازل أطالع صفحة جبينك التي كتبت عليها أحلام الزاهدين التائبين الذين رضي عنهم رب العالمين... ثم يبالغ خياله في تعذيبه، فيتصور الحلم الماضي حقيقة، وانها باتت زوجته الحبيبة، ويراها بعين الخيال نائمة أمامه فيميل عليها ليقبلها، واذا ببرودة الترب تبعث في صدره رعشة توقظ عقله... فينسى كل شيء الا حزنه العميق اللامحدود على آمال كبار رفت عليه رفيف الندى على الزهر في لحظة، وفي لحظة بخرتها حرارة لافحة طوحت بها وراء العدم...

ويعود فيتأمل الترب الممزوج بدمائها والذي أقام منه وعليه قبرها... فيبكي بأنفاس متقطعة مغمغما، غفر الله لكل آثم الا من سفك دمك... ويجول ببصره كالمسحور بفتنة خفية، ثم يرتمي على القبر في اعياء وألم متمتما... كيف أطهر الترب الذي حواليك والنسيم الذي يحوط بك من رجس الآثمين الذين مروا على هذه الأرض منذ حين... لتنعمي بالطهر الذي كنت تنشدين؟...

ويعود إلى نفسه رويدا رويدا، فيصلي قدر ما تسمح به طاقته يصلي أكثر من الفرض والسنة؛ ثم يغيب عن نفسه فيتخيل روحها تحوم كالفراشة فوق رأسه، فيطير عقله معها حيث تطير مدمدما... يا منقذتي من وحشتي.... ليتك تخرجين من ظلمة الفناء إلى الفجر الساطع... كم يطيب للمؤمن حركة التسبيح والعبادة، ولكن في سكونك أيضا تسبيح أعظم من التسبيح؛ وعبادة أعمق من العبادة، اذ لم تزل رقة شمائلك وعذوبة مشاعرك تضفي على السكون جلال الايمان وقداسة العبادة... لقد كانت أيامك في الدنيا قصارا، ولكنها بآلامها ومتاعبها وهمومها وكوارثها أطول من عمر البشرية منذ عرفت الأسى والاستغفار...

أيتها القديسة المجهولة، لم جئت؟ ولم تذهبين هكذا سريعا؟ ام لم تنتظري ريثما تسعدي بحبي الهائل؟

تبا لمن قذفك في بحر العدم قذفا مريعا، محطما حياتي تحطيما شنيعا... آه لو تريث لأعطيته كل شيء حتى روحي لو تطلبها شفيعا... لم جئت وفتحت أمام قلبي بابا كان مغلقا... وأريتني جمال الخلد مورقا؟... لم جئت يا مشعلة الخلود؟ هل ضاقت دنيا الناس

بايمانك فآثرت الإحتجاب وراء المجهول؟ وهل ضقت باشباح الضالين الناهبين فاختفيت طائرة الى عالم المؤمنين القانعين؟... ليتك، ليتك ذهبت عني عن غدر وخديعة لأضيف إلى صفحات الغدر صفحة ثم أنسى!... فهل تراك آثرت الذهاب عن وفاء وايمان لتضربي المثل في التضحية تاركة الفني والأسى طوال ما تبقى من عمري!...

أيها الطهر المجسم في طيف امرأة... أيتها التوبة التي اتخذت كيانها مسكنا... اغفر اللهم لمن قتلها بقدر ما غفرت لها لتظل رحمتك تحبوها بنورك القدسي... ويمعن في التأمل... فيغمغم... يالرهبة الليل الذي يكسو مثواك الأخير... دعيني أستشعره لأغيب معك في عالمك... ويغطي وجهه بيديه باكيا وقد انصهرت عواطفه الملتاعة بحرارة وجدانه الباكي، ويبكي في سكون، وظل كذلك حتى لفحت وجهه نسمة باردة أيقظته من غفوة حزنه المكتوم، فعاد إلى وجوده سستا كعصفور بلله القطر، ورفع وجهه إلى السماء مستجيرا... رباه... لك الأمر... « انا لله وانا اليه راجعون ». اشملني بنورك كما شملتها، وارفعني إلى سماك كما رفعتها، وخذني اليك، اذا شئت، كما أخذتها، ثم شهق شهقة طويلة أسلمته لغيبوبة حالمة غابت فيها نفسه

وعاش لها لم يبرح قبرها يروي زرع حديقة مثواها ليبعث نسما معطرا بانفاسها العبقة الخفية لتجدد الحياة في صدره قانعا من دنياه بثمار الشجر وتمر النخيل متفانيا في تكبير الله وتسبيحه، وكثيرا ما كان ينسى نفسه فلا يشعر بالجوع والعطش لاستغراقه وانطوائه حتى تغير حاله فهزل جسمه وأصبح كهيكل عظمي تحركه أنفاس متقطعة فاترة.

ومر على وفاة التائبة بضعة أعوام وهو لم يزل يشعر بالحرمان والأسى كانها ماتت في التو ولشد ما كان يفزعه ويروعه كلما تذكر انه سبب قتلها، لقد جاءت اليه ليحميها فاذا به السبب في موتها فلولا ثروته ما اقتحم اللصوص كوخه ولولا دفاعها لما قتلت يقينا.

وظل حبيس خواطره الحزينة لا يفارق القبر ليل نهار...

وذات يوم مر به رجلان يجر أحدهما زميله الكسيح حتى اذا أضناهما الاعياء والتعب جلسا للراحة تحت الخميلة التي تحوط قبر الشهيدة وراحا يتحدثان، وقد ظنا أنه لا يوجد بالمكان سواهما لان الناسك كان مستلقيا خلف شجرة كثيفة وقال السليم للكسيح.... ترى من هذا؟ يبدو أنه ولي من أولياء الله مات حديثا... ولما اقترب السليم من القبر ليطالع ما كتب عليه.... شهق وهو يصيح.... شهيدة تائبة.... عنوان قصة امرأة.... ترى من هي؟ ويسرح ببصره حوله ثم يقول: لو كان هنا كوخ الشيخ تكون هي التي قتلتها يا صاحبي.... ولكني لا اجد له أثرا.... فيقول الكسيح.... قدني إلى النخلة المجاورة لهذه الحديقة... وهناك يجد الكسيح أثر الحفرة التي كانت بها الثروة والصخرة ملقاة بعيدة عنها... فيصيح... انها هي.... هي بالتأكيد.... هنا كان كوخ الشيخ.... وهذه الحفرة التي كانت بها الثروة.... لقد ذهب بعيدا على اثر موتها.... ويتمتم السليم.... قلت لك يومئذ لا تقتلها فقاطعه.... خفت أن تدل علينا فيقاطعه السليم.... إن الحادث الذي اصابك هو غضب من الله عليك...

حقا (من قتل يقتل)، فقاطعه ولكنني لم أقتل... فقاطعه... لقد استبقاك الله ليطيل عذابك.... ولقد حزن رئيس العصابة عليها عندما

علم بقتلها.... واخبرني أنها كانت - رحمها الله - طيبة القلب محسنة فطالما رآها تتصدق على الفقراء والمحتاجين بما كانت تجمعه في الليل من عشاقها المخبولين، و كانت تمنى أن تتزوج لرجل تعيش معه شريفة قانعة بكسرة خبز وقليل من الزاد، بدلا من حياة الفجور التي كانت تحياها و ولكن الرجال كانوا ينظرون اليها نظرة كبرياء واستعلاء اذا أبدت استعدادها للزواج، مصطنعين حبها والوله بها للاستمتاع بها... لقد غفر الله لها ورضي عنها باستشهادها... فضحك الكسيح ساخرا قائلا: اذن هناك أمل في أن يفسح لنا جناته ويرضى عنا، فرمقه السليم بنظرة ساخرة حادة معقبا أمثالنا؟ لا أظن، فهناك فرق كبير بيننا وبينها... لقد كانت تقترف الاثم مضطرة وتكفر عنه بالاحسان، أما نحن فليس هناك ما يضطرنا للاثم والأجرام.

فقال الكسيح في حدة:

نحن أيضا اقترفنا الاثم مضطرين... فلو أتيح لنا عمل شريف في مستهل صبانا ما سعينا إلى الشر واقتراف الجرائم لنعيش... أنسيت أن هناك قتلة من نوع آخر، قتلة من الأمراء والعظماء، أعماهم مجونهم وفسقهم وجشعهم وأنانيتهم، فعاثوا في الأرض فسادا، وقتلوا أمثالي و امثالك ظلما وطغيانا واستعبادا - ويأتي الواحد منهم الفحشاء سرا ويتشدق بالدين والتقوى جهرا.

فلئن كان لهم في الدنيا نعيم موفور فلهم في الآخرة جزاء الأشرار الآثمين، أو تنسى أننا طعنة من ضربات القساة، أو لم تمر على عربة أحدهم فداستني كما تداس الحشرة، ولم يقف في سبيلها كائن لأنها

عربة عظيم، لو كان في البلاد عدالة قبل قيام الثورة، أكان الأدميون يتحولون الى حشرات في نظر الحاكمين؟... أني أعرف كيف أجيب الله عندما يسألني لم سرقت؟ بل هو يعلم لماذا سرقت وقد لا يسألني، أما هؤلاء الطغاة الأبالسة ماذا يقولون لربهم عندما يسألهم عن بواعث مجونهم وفسقهم وطمعهم وأنانيتهم؟ ليس عندهم ما يقولونه وسيكون مصيرهم جهنم وبئس المصير... وهنا يتنهد السليم في تحسر ومرارة وهو يقول بصوت كسير: لو غفر الله لنا حقا لرسم لنا منهجا سليما نسير عليه... لكن ما حيلة من يعمي الشيطان بصيرته؟ لا شيء غير التسليم له الا من ينفذه رب العالمين. فيقاطعه الكسيح... أوه... وماذا يجدى الحديث في هذا... دع الأمر لله... هيا بنا فقد أوشكت الشمس أن تغيب ومعدتي تصرخ جائعة... وقد نجد في بيت التائب مايطعمنا و لعله يفي بوعده ويجد لك عملا كما وعد.

ولم يكد الناسك يراهما يتحركان لمتابعة مسيرهما حتى يشعر بأن صراعا عنيفا قام في نفسه بين الرغبة في أخذ الثأر للتائبة وبين التسامح لكيلا يغضب الله... وقال في نفسه... انه كسيح... حسبه ما يعاني... انه يموت في بطء... ويتغلب جانب الخير في نفسه ويصعب عليه أن يرى جائعا ولا يعد له طعاما فيجمع ما تيسر من الثمار ويقدم مع ما بقي لديه من زاد التجار إلى اللصين الذين يفاجئان بالشيخ وهو يقدم لهما الطعام... فتخرسهما المفاجأة ويقبلان عليه، يقبلان يديه ويطلبان منه التسامح والمغفرة.

وعلى أثر انصرافهما... تأتي اليه امرأة قروية... تذكره بأن السيدة التي قتلها الاشرار رحمها الله... كانت وعدتها قبل وفاتها باعطائها بعض

ملابس من عندها... وهنا تذكر الناسك أن جميع ملابسها التي تركتها احتفظ بها في صندوق أودعه حفرة خفية خلف قبرها... فقام في التو وأحضر الصندوق ومنحها الملابس، وعندما هم بتسليمها محفظة يدها خاف أن تكون بها بعض أوراق تكشف أسرارها ففتحها ليطمئن على خلوها مما يثير ذكرى قد تزعج روح الميتة، فلم يجد بها غير نقود قليلة، وورقة كتب عليها عنوان اختها... فاحتفظ لنفسه بعنوان الأخت، وسلم القروية كل ما خلفته التائبة.

وعادت الى ذاكرته ذكرى أختها، ووجد نفسه مدفوعا بقوة خفية للذهاب اليها لزيارتها، وتقديم جزء من ثروته تكريما لذكرى أختها الشهيدة.

وعاد الشيطان يوسوس اليه... لماذا لم تقتل قاتلها وكان ذلك في وسعك؟ وسرعان ما استرد ايمانه فقال في نفسه وما الفائدة؟ أن قتل الجاني لا يقضي على الاثم... انما يجب أن أقاتل الإثم أولا، ومفتاح ذلك بايجاد عمل لكل عاطل، ومحو الفوارق الطبقية، و توزيع الرحمة والعدالة الاجتماعية ليتطهر الوطن من كبرياء المتكبرين، وعتو الطغاة الفاسدين وظلم الظالمين.

وأخذ كل ما تبقى من ثروته وسار في طريقه ليحظى برؤية أخت الشهيدة، فقد يخفف ذلك من لوعته وأساه.

وعندما رآها... أفهمها أن أختها تركت لها ولأخواتها الصغار لإتمام تعليمهم ثروة قبل وفاتها، وقد سلمته اياها عندما مرضت، وأوصته أن يسلمها اليها اذا عاجلتها المنية، اذ كان يعمل معها ممرضا في عيادة

طبيب بالصعيد. وصعقت الأخت وألم بها ما ألم من حزن لوفاة أختها... ثم قالت له لقد حاولت معرفة مقرها فلم أتمكن لأن ابنها كان شديد الرغبة في لقائها... وهو لم يعرف أنها أمه الا بعد أن توفيت مربيته، ووجد في صندوقها الخاص ورقة ميلاده التي تحمل اسم أمه وأبيه... فلما ذكر لي اسمها دون أن يعلم أنها أختي... صدمتني المفاجأة... وتبكي ثم تستجمع ارادتها مردفة... تصور أن هذا الشاب كان على وشك أن يتزوجني ليحميني من الذئاب البشرية... لولا لطف الله، فزج به في السجن ولولا ذلك لتزوجته

فقاطعها الناسك... وكيف كان ذلك، فذكرت له قصتها عندما عرفته عن طريق المرأة التي اتخذتها اختا لها... ولما عرف أن الباشا هو المجرم وكان قد سبق أن سجنه ظلما عندما تقدم اليه يطلب عملا... وسعت اليه المرأة التي كانت عشيقة لهذا الباشا فأفرج عنه... لكنه ظل محتفظا في قرارة نفسه بالحقد على الباشا راجيا أن تتاح له فرصة للانتقام منه... فلما ذهب لمقابلته لكي يطلب منه تصحيح غلطته ويتزوجني، أبى الباشا وهدده بزجه في السجن... وهنا ثار الشاب لكرامته و كرامتي... بل ثار لكرامة وشرف الطبقة التي ينتمي اليها أمثالنا... فحاول قتله... ولكن الباشا كان دائم الحرص والحذر فلم يمكنه من قتله ودفعه إلى السجن

وبعد زواجي علمت من الصحف باخلاء سبيله عندما أفرجت الثورة عن أمثاله بعد اعتقال الباشا وأمثاله من الطغاة... ورأيت من واجبي أن أزوره عساه يكون في حاجة إلى شيء ما...

فاستأذنت زوجي الذي كان يحمل له كل تقدير لشجاعته وكرمه وشق عليه للاعتداء عليه زورا وذهبنا اليه لنعرض استعدادنا الوقوف بجانبه ومساعدته ريثما يسترد طمأنينة نفسه ويعود لعمله...

فلما جاء لزيارتنا شاكرا وأراد زوجي أن يساعده، طلب منه استخراج بطاقة شخصية... ولشد ما هالني عندما أخبرني زوجي أنه ابن شقيقتي وكان قد عرف مني انها تزوجت بوالده الذي ذهب لغير رجعة.

وأطرق الناسك مليا ثم قال... اذن فقد جئت في الوقت المناسب لقد تركت له هو الآخر ثروة يستطيع أن يستغلها كرأس مال لأي عمل حر وسأقف بجانبه حتى يكون من الرجال العاملين المصلحين.

و تنفس، لأول مرة بعد وفاة الشهيدة، الصعداء وهو يقول... حمدا لله... لقد أديت الأمانة وأسعدتها في الآخرة، وأرضيت روحها كما كانت تتوق.

وأخذ عنوان ابن الشهيدة وذهب اليه ليقدم اليه ما تبقى عنده من الثروة، وظل بجواره حتى هيأ له مستقبلا كريما، وحياة طيبة آمنة ثم عاد الى مقر قبرها ليظل بجوارها حتى نهاية عمره.



الغلاف الأصلي ١٩٤٤